دار روف منشورة
للنشر الإلكتروني
نَكْهَاتُ
صوفيا
رواية
صفاء حسين العجماوي

دار حروف منثورة للنشر الإليكترونى

نوع العمل: رواية

اسم العمل: نكهات صوفيا

اسم المؤلف: صفاء حسين العجماوي

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الثانية إلكترونية ستمبر 2018

تصميم الغلاف : مروان محمد

تنسيق داخلي: مروان محمد

تدقيق لغوى: محمد بن يوسف كرزون

مؤسس الدار

مروان محمد

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني المجاني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

نكهات صوفيا

رواية

صفاء حسين العجماوي

شكر و عرفان ،،،

أتقدم بالشكر و العرفان لأبى العزيز الذى لولاه ما تعلّمت تذوّق فنون الأدب ،و إلى والدتى التى تحمّلت تقصيرى، و تغاضت عن هفواتى لتتيح لى الوقت للقراءة و الكتابة ،و إلى أخوتى الداعمين لى ،و إلى أستاذى و أبى الروحى الكاتب و الشاعر الكبير محمد بن يوسف كرزون الذى تفضل مشكوراً بتقديم العمل بعد تصحيحه لغوياً، و إلى الكاتب الكبير محمود قنديل الذى تفضل مشكورا بكتابة تقدمة لروايتي ،و إلى المصمّم كريم وهيب على تصميمه الغلاف الدعائى للرواية. كما أتقدّم بالشكر للأصدقاء: من مصر (محمد عاصم ،ولاء أبو رية ،نفين العجماوى ،إسلام وهيب ،الطيبة آدم ،ساهر البحيرى ،على هنداوى ، إيناس عراقي) ، من اليمن (سعاد عمر) ،من الجزائر (عزيز شكيرد) ، لجهودهم فى ظهور الرواية بهذا الشكل .

صفاء حسين العجماوى

أهداء، ، ،

إلى ذلك المجهول الذي آثر المكوث في الظلّ ليلهمني حروفي. إليكَ أنتَ.

" نكهات صوفيا " ..

وكاتبة تستحق الاحتفاء

محمود قنديـل

تستهل " صفاء حسين العجماوي " روايتها هذه بإهداء ذي دلالة ومغزى (إلى ذلك المجهول الذي آثر المكوث في الظل ليلهمني حروفي .. إليكَ أنتَ) ، فرغم عبق الخصوصية الذي يضوع منه، إلا أن النظرة المتأملة ترى فيه عمومية تَخْتَزِل الجميع في كلمة واحدة (إنسان).

ولعلنا ــ هنا ــ نستجيب لتحريض الإهداء، و هو يحثنا على استدعاء عنوان كتاب " ألكسيس كاريل " (الإنسان .. ذلك المجهول) الذي حاول فيه الكشف ــ برؤية علمية ــ عن مناطق داجية لا تغادر هذا الكائن.

لذا يحق لنا أن نستأنس بأبعاد الإهداء الذكي الذي يشترك مع " كاريل " في الهدف، و لكن برؤية فنية.

إن الرواية التي بين أيدينا تعلن عن ولع كاتبتنا بالتنقل بين الأمكنة للوقوف على جغرافيتها و طبائع سكانها و تطلعاتهم.

و يحسب لـ " صفاء " نجاحها و تميزها في خلق أجواء أسطورية بلغة تنسجم و مناخ أحداثها المتأججة :

" أخذ كاهن معبدنا يركض بردائه الأصفر، حافي القدمين في طرقات القرية الترابية، مثيرًا عاصفة من الغبار الرمادي، و هو ينذرنا بالثبور و عظائم الأمور، و أن الدماء ستسيل أنهارًا لتخضب أرضنا لعشر سنين "

إن روعة الفانتازيا تتمثل في سرايانها في شرايين الرواية بتلقائية لا يتسلل إليها افتعالًا .

و تبدو " صوفيا " بطلة الرواية إمرأة عليمة بكل الأمكنة بتضاريسها و قاطنيها، فهي تنزع عن الناس الأقنعة، و تفضح نواياهم، و تتنبأ بمصائرهم.

و من الجميل أن تصافح أديبتنا الرمز كأداة فنية مهمة، دون أن تغرق فيه أو يغرقها .

و " نكهات صوفيا " تحفل بالصور الفنية التي تشتبك مع الأحداث لتستنطق الواقع بطرائق لا تُشَمْسِن النص، بل تدعو إلى قبول تعددية التأويل و التفسير .

إننا بصدد مبدعة تعرف كيف تصوغ الحرف، و تتآلف الكلمات، و تتعانق الرؤى، كما تعرف كيف تتشكل الرواية و يتماسك بنيانها، لذا فإننا لانبالغ – مطلقًا – حين نقول عن روائينا الجميلة " صفاء حسين العجماوي " أنها جديرة بالاحتفاء.

تقديم

محمد بن يوسف كرزون

كلّنا يبحث عن لغة روائيّة جديدة، أو متجدّدة، و لكنّنا – على الغالب – من الصعب أن نجدها، لأنّ أغلب كُتّابِنا مقلّدون، سواءٌ أرضَوا بهذا الوصف أم لم يرضوا.. فنحن إمّا نقلّدُ كُتّابَنا الناجحين، و إمّا أن نقلّدَ الكتّاب الأجانب، و لا سيّما الغربيّون، تقليداً أشبه ما يكون إلى الترجمة الرديئة.

ما دعاني إلى هذه المقدّمة هو أنّني قرأتُ روايةً لكاتبةٍ واعدة، هي الأستاذة صفاء حسين العجماوي، و رأيتُني من السطر الخامس لقراءتي أغوصُ في عمل روائي يجمع ما بين العجائبيّة و الأسطورة و الأبعاد النفسيّة و العلميّة... ثمّ لأجد نفسي نصّينِ لروايتين متداخلتين تداخلاً ذا أبعاد جمالية تشدُّ القارئ و تُمتِعُهُ في قراءة النصّ حتّى آخر حرف من حروف هذا العمل.

و لعلّ هذه الروائيّة الشابّة، قد تمكّنتْ من تقديم هذه الرواية الغنيّة لعدّة أسباب، أوّلها: أنّها ذات موهبة حقيقيّة، بكلّ ما في الكلمة من معانٍ جميلة؛ و قد ساعد على تنمية هذه الموهبة اجتهاد صاحبتها اجتهاداً ليس بالقليل، فتحصيلها العلميّ الدقيق أسهم في تعزيز هذه الموهبة، إضافة إلى قراءاتها الغزيرة جداً منذ صغرها، و هذه القراءات المتنوّعة جداً قد جعلت حصيلتَها الأدبيّة، غير المباشرة كنزاً غنيّاً لها، تنهل منه ما تشاء دونَ أن تقلّدَ منه أيّ نصّ. و السبب الثالث هو جوّها الأُسَريّ الحميم، فوالدها خير أصدقائها في عمرها على الإطلاق، و هو رجل راجح العقل، يتقبّل الحوار، بل هو مستشار نادر في عصر صار أكثرنا يبتعد عن علاقاته بوالديه، فإذا بهذا الأب يكون الناصح و المحاور و واحة الأمل و الاطمئنان لجميع أفراد أسرته، و لا سيّما ابنته صفاء، كاتبتُنا. و لا تبعُدُ عن الجوّ الأُسريّ أختُها، الناقدة و الصحفيّة، التي تشاكسها في بعض الآراء و المواقف، و لكنها تفيد منها فائدة لا حدود لها من خلال هذه النقاشات. و أمّا السبب الرابع، و هو لا يقلّ أهمّيّة عن الأسباب السابقة، فهو طبيعة عملها في مجال البحث العلمي، و هو ما يتفحُ لها

آفاقاً واسعةً من الخيال العلمي الدقيق، الذي هو في حقيقته خيال، و لكنّه لا يبتعد عن الحقيقةِ العلميّة سوى في استشراف المستقبل، أو تفسير ظواهر علمية استعصت على كثيرين في تفسيرها... فصارَ ذلكَ لها منهلاً تنهل منه ما تشاءُ و تغذّي نصوصها الأدبيّة التي تُبدعُها لنا. أمّا السبب الأهمّ من هذه الأسباب كلّها، فهو أنّ كاتبتنا المبدعة تستثمر وقتها خير استثمار، و تتنقّل في يومها من نشاط إلى نشاط، ما بين قراءة، و حضور محاضرة، و إجراء مناقشة، و مشاهدة عمل فنّيّ أو علمي، و حوارات عبر وسائل الاتّصال في الإنترنت، إلى التفتيش عن كتاب أو كاتب تستفيدُ منه و لو بجملة واحدة.

لن أعرض للرواية و تفاصيلها، إذْ أترك للقارئ الكريم استمتاعه بالقراءة، و لن أقول في هذه الرواية سوى أنّها جمعتْ غرائبَ شتّى، فألّفتْ بينها، و قدّمتْ لنا نصّاً بديعاً بكلّ ما في كلمة إبداع من معنى. و قد يحتار بعض القرّاء في تفسير الرواية في أحداثها و تفاصيلها، و هذه الحيرة هي التي تمنح جمالية خاصّة لها، لأنّ كلّ قارئ يمكن أن تكون

له تفسيرات للنصّ. و هو مع ذلك يستمتع بالرواية من الصفحات الأولى، إلى آخر كلمة في الرواية.

و إنْ كان لي عتب على كاتبتها أنّها كانت ترهقنا في أحداث الرواية و هي لاهثة وراء أبطالها و أحداثها، فالرشاقة في اللغة الروائية مُتعِبة، إلى الحدّ الذي لا تجعل القارئ يلتقط أنفاسه، أو يدع الرواية جانباً ليتناول وجبته التي صارت أمامه. بل يجد نفسَهُ قد أجّل كلّ شيء أمامه ليتابع القراءة، و يرى ماذا حصل لشخصيّات الرواية.

و تبقى العلامة البارزة من علامات الرواية تنوّع المكان تنوّعاً غنيّاً، إذْ نقّلتْنا الكاتبة بين عدّة قارّات، بل إنّها قد أدخلتْنا في أماكن غرائبيّة متعدّدة، إضافةً إلى الأماكن الواقعية ولكن الخلاّبة.

أتمنّى للكاتبة أن تفيدَنا دائماً بلغات روائيّة متجدّدة، و قد علمتُ مؤخّراً أنّها تكتبُ الشعر أيضاً، و هذا التنوّع يُغني الأعمال الروائية القادمة لها.

و أجمل ما في صفاء أنّها لا تكرّر نفسَها، فقد قرأتُ لها أكثر من مجموعة قصصية، و كانت كلّ قصّة فيها لها طعم و لون

و لغة، ممّا يعني أنّ إبداع كاتبتنا هو أصل فيها لا شائبةَ فيه، بل ليس فيه من الصنعة أو التصنّع شيء.

بورصة تركيا في 22 مارس/آذار 2016

محمد بن يوسف كرزون

مقدمة لابدّ منها :-

لماذا سُمّيتْ بنكهات صوفيا؟

لأنّ مغامراتنا بنكهة كلّ بلد نزورها، فأبطالنا ما أن يذهبوا أيّ بلد حتّى يصبحوا جزءًا منها، فأسمائهم، و ملامحهم، و ملابسهم، و مغامراتهم كلّها من نسيج ذلكَ البلد.

عزيزي القارئ، ، ،

هل راودك يوماً السفر حول العالم؟، و رغبت في جولة في جَنَبات المعمورة لتعيش كما يعيش أهلها؟. لقد تملّكتني الرغبة أنا صوفيا الجحيم المدّللة لترك أرض جحيمنا حيث يعيش أبي الكونت فلاد الولاشي، و أخي دكتور لوسيفير، و أَخَواتي ملكات الجحيم، و نبع الجحيم الذي نستمدّ منه قدراتنا الخارقة. فقد تملّكني الملل، و أردْتُ أن أقضيَ إجازتي بين الفانين لأري كيف يحيون؟.

لا تحسبْ ما تقرؤه خطأً، فأنت لم تخطئ القراءة، و قبل أن تسأل نفسكَ كيف يكون أبي هو الكونت دراكولا، و أخي دكتور لوسيفير؟. سأجيبك بأنّنا نحيا في أرض أباطرة الجحيم، حيث لا شيء كما تتوقّعه، و لا كما تعلمه، حيث جحيمنا المبتسم. و قبل أن تغضب، نعم نحن نعيش في أرض الجحيم المبتسم. أراك كما هي عادة الفانين متسرّع، و تبغي مهاجمتي، انتظر يا هذا، فمهما أسهبتُ في وصف أرضنا لن تقتنع، لذلك تظاهرْ بأنّك تصدقني، و اصحبني في رحلاتي، و إن لم تصدّق ما أرويه لك، أعتبره قصّة طريفة مسلّية. هيا بنا لنبدأ.

نكهة هندية

1

أثناء غفوتي بين ذراعي مربّيتي و وصيفتي ماريا الدموية، راودتني رؤيا عجيبة، فقد رأيتُني أسير بين حياتي الراقصات حولي في الطرقات الترابية لتلك البلدة الهندية، متشحة بساري أسود من صنع جنّيّاتي الحائكات، يضيء كألف نجمٍ يسرق أبصار الفانين المختلسي النظر بين الرؤوس المنكّسة، يزين رقبتي عقدٌ مرصّعٌ بقطعٍ مِنَ الألماس من قلب الجحيم، تُشرق كشمس دافئة. تقترب الفتيات منكّسات رووُسهنّ مرتجفات، يبغين بركاتي، و زعفرانة من صنع حياتي على جبينهنّ تشعّ جمالاً ليخطفن أبصارَ الشباب. اقتربَتْ فتاةٌ جسورة تبلغ العشرين تحادثني، قالت من بين شعرها المتناثر على جبهتها : "أي حكيمتنا الجميلة صفاندينا الباهرة، أريد أن تسقيني من حكمتك، و قوّة شخصيّتك، و جمالك، لأكونَ وصيفتك، و أجمل فتيات الهند".

تبسّمتُ من جسارتها، و حُسْن بيانها، فأشرتُ إلى حياتي أن أحضرنها إليَّ لتكونَ من ضمنهنّ، و تصبح مثلهنّ، وسط حسد بقيّة الفتيات الموسومات بالزعفران.

أفقْتُ من غفوتي، و قد تملّكني الملل من روتين الجحيم، فقرّرت أنا صوفيا الجحيم المدلّلة أن أقضي إجازتي الشتويّة بين الفانين، و في إحدى أكثر بلاده عجباً. أخبرت أبي العزيز الكونت دراكولا، و أخي الغالي، فوافقا على ذهابي، فودّعت ملكات الجحيم. و اخترتُ لي أسماً يتناسب مع تلك البلاد، و غيّرْتُ من هيئتي، و رحلتُ إلى الهند.

2

غادةٌ حسناءُ بعيون المها تزيّنت، رشيقة القوام، سوداء الشعر ينسدل بنعومة على كتفيها، و ببسمة تعتلي ثغرها دائماً أصبحت، و أطلقت على نفسي صفانديناً، و ارتديت الزيّ الهنديّ التقليديّ المسمى بالساري، و تزيّنت بزعفرانة بين حاجبي، و نزلت إلى قرية نائية في أطراف الهند. كنت أتوقّع إجازة مرحة تجدّد لي نشاطي الذي فتر من الروتين اليومي في مملكتنا، و لكن ليس كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه.

كعادتي قبل أن أقضي بعض الوقت مع الفانين أجعل لي تاريخاً بينهم كأنّي أحيا بينهم منذ و جدوا على وجه الأرض، و لذلك جعلت صفانديناً فتاة ريفيّة تقليديّة تعمل بالزراعة يتيمة الوالدين، تعيش مع جدّتها العجوز. تساعد جميع أهل القرية، و لذلك يحبونها، و يودّونها، و يعتمدون عليها. و إذا بي أجدني كرفعت إسماعيل، تركض المصائب خلفي لتلحق بمن حولي، و كأني مغناطيس يجذبها. فقد هبط على تلك القرية المسالمة كارثة لا قبل لهم بها. كم أفتقد ذاك الفاني رفعت إسماعيل الذي مات، و تركني لحماية البشر وحدي.

كانت تلك القرية الهندية على موعد مع كارثة مزدوجة، فقد هبط إلى أرضها محمّلاً بلعنة جحيمية أميرُ الظلام، و بصحبته أسوء لعنات الجحيم ممثّل السماجة الرقيعة المدعو ساهمندر. كان هذا فوق أحتمالي، فقد قدمت إلى تلك القرية في إجازة لا أن أحمي قرية من غزو قادم من أرض الجحيم، لذلك فقد تحتّم عليّ اللجوء إلى بديل رفعت. أخذت أذرع غرفتي ذهاباً و إياباً لعلّي أهتدي لمن يقع عليه اختياري، فقد كان أبطال رويات مصريّة للجيب كُثُر، هل أختار من أبطال العرّاب أم الدكتور نبيل فاروق أم غيرهما؟. كدت أجنّ من التفكير، فيجب أن أختار منهم بطلاً، و أدمغه بالزعفران، و ألبسه العمامة، و أصبغه بالنكهة الهندية الريفية للأبطال الخارقين. طال بي الوقت، و أنا ككيونة لا أريد استبدال رفعت، و لكن كيف، و هو ميت؟، كما أنه لو صبغ بالهنديّة لأصبح سحلية هندية مجفّفة، ظننت ذلك واضحا.

ما إنْ سطع كوكبي الأثير الزهرة حتّى وقع أختياري عليه بطل خارق يكفيه لباس هندي ليناسب الأحداث، فهو لي دائماً مثلهم، ألا و هو أدهم صبري. لقد أطلت له لحيته، و شاربه، و ألبسته زيَّ مزارع هندي فقير، و جعلته جاراً

لصفاندينا، و أسميته راج، لتبدأ مغامرتنا في تلك القرية المتربة.

3

توسّط البدر كبد السماء، و على بعد خطوات منه سطع كوكبي الأثير فينوس. جلست في هيئة صفانديا مرتدية ساري أصفر اللون، و قد ربطت شعري الأسود الفاحم. أخذ النسيم يداعب بعض خصلاته المتمرّدة، فإذا بصوت عذب يغنّي باسمي، فألتفت إليه، فإذا به راج، و من في قريتنا لا يعرفه. إنه أوسم شباب القرية، ذو بشرة سمراء نقيّة، أسود العينين، عضلاته بارزة، يشعرك أنّه أحد أبطال الأساطير الإغريقية. و من لا يعرف راج، فكما كان أدهم صبري فتى أحلام جميع الفتيات، و بطلات سلسلته، فقد كان معبود فتيات القرية، و كن يحقدن عليّ لأنّه أختارني أنا، و لم يُعِرْ أيّاً منهم أدني اهتمام. كان صوته عذباً دافئاً جعل أوراق الأشجار ترقص طرباً، ممّا حدا بي أن أشاركه الغناء.

لقد تحقّقت أمنياتي في تلك الإجازة، فقد ذهبت خصّيصاً للهند للتمتّع بالغناء، و الرقص، و وجدته في راج. يا لها من متعة. و لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد سمع صوتي أمير الظلام الذي التمعت عيناه خبثاً، و أمر تابعه شاهمندر بالذهاب إلى تلك القرية ليتأكّد من أنّي هناك. و

كانت هذه هي نهاية عطلتي، فقد أبى الجحيم أن أترك أرضه، فأرسل لي أشرس مخلوقاته، ليحوّل مشاكل أهل القرية من الاهتمام بالزراعة، و قضاء حاجات أهلها، و محاولاتهم لفصل صفانديا، و راج، لمواجهة سفراء الجحيم.

4

من هو شاهمندر؟، من في أرض الجحيم لا يعرفه، إنّه ذلك الكائن الرخو اللزج المثير للغثيان، مدّعي الرومانسية، و هو أبعد ما يكون عنها، فهو يشبه تيراصور ركس الذي يحاول أن يتظاهر بأنّه طاووس، فيصبح فلسبيارتور لاحم. هل لكم أن تقدّروا مدى معاناتي عندما أجده يخرب إجازتي بقدومه مع أمير الظلام؟

في صبيحة إليوم التالي استيقظت باكراً، قبّلت جبين جدّتي، و ذهبت لمورد الماء لأملأ جرارنا، و بالطبع رافقني راج ليحمل عنّي الجرار. هبط شاهمندر إلى قريتنا، و أخذ يغازل فتيات البلدة المنطلقات للحقول لبدء العمل. كان سمجاً كعادته يظنّ نفسه فارساً تهفوا له الفتيات، و لكنه، و يا للأسف، كان يشبه الضبع الذي يخشى من الموت. كانت الفتيات تفرّ منه كأنّه الجُذام، و هو يظنّهنّ خجلات، و في الحقيقة نافرات. حتّى غازل برفاتي أشرس فتيات البلدة، و التي لم تتحمّل و قاحته، و طبعه اللّزج، فقامت بصفعه بقوّة رجّت كيانه. كانت تظنّ أنّه سيهرب، أو يغضب، لكنّه ابتسم بصفاقة، فأخذت تخاطب نفسها قائلة:

"يا لَحَظّي العاثر! يغازلني غوريلّا غبيّة، و تحصل صفاندينا على راج ".

فسألها بغباء: "من صفاندينا؟، و كيف هي؟"

فكّرت بارفاتي للحظة، ثمّ التمع الخبث بعينها، و قالت: "هي عند نبع الماء تملأ جِرارها قبل أن تلحقنا إلى الحقل".

تركها شاهمندر مُسرعاً ليلحق بي أنا، و راج في طريق عودتنا.

5

كان أكثر الأشياء التي أرتكبها أمير الظلام حماقة، هي إرساله هذا الشاهمندر، فقد كانت لُزُوجته تنفّر الجميع، حتّى أن الفانين كانت لهم القدرة على صفعه دون أن يهتزّ لهم جفن، و دون أن يؤثّر ذلك فيه، فدائماً ما يعتلي وجهه إبتسامة لَزِجة تثير أصبع قدمي الكبير لأنْ يركله، و أنا أتفاوض معه ليتركه، فهو لا يستحق عناء الاهتمام به، طبعاً أتفاوض مع أصبعي ظننت ذلك واضحاً.

ما أنْ لاقانا شاهمندر حتّى تجاهل وجود راج، الذي كان يحمل الجرار بدلاً منّي، و أخذ يغازلني بسامجته المعهودة. في البداية تظاهرتُ بالتجاهل، لكن يا ويلي... حفّزه ذلك على الاستزادة في وقاحته، فما كان من راج إلاّ أن قام بإنزال الجرار بهدوء، ثمّ ركله في وجهه ليسقط شاهمندر أرضاً. و وضع قدمه في منتصف بطنه، و أخذ يضغط بقوّة، و بالقدم الآخرى يركل وجهه، ثمّ يبدّل بين قدميه في إيقاع راقص، و هو يغنّي باسمي باستمتاع. ثم أخذ جِرار الماء ليرقص بها تبادليّاً مع حركة قدمية الإيقاعية، و أنا أغنّي معه بعذوبة.

اجتمع أهل القرية على غنائنا، ثمّ بدؤوا في الرقص، و هيتيانا -حفيدة ساحرة القرية المتيمة براج- تأكلها الغيرة، فأخذت تمزّق ساريها بأسنانها، و هي تتوعّدني. كانت الدماء تغرق وجه شاهمندر و بطنه، و كلّما زاد تدفّقها زاد جنون هيتيانا و بارفاتي، و انسحب كلاهما.

انتهى راج من أغنيته، ثمّ قفز للأرض، و قبّل يدي، ثمّ ألتفت إلى شاهمندر، و ركله في جنبه ليقف، و قال له: "أذهب خارج قريتنا، و لا تَعُدْ ثانية يا كُرَةَ الجوارب، ما حدث الآن ما هو إلاّ رقصة لأجل عيني صفانديا، أمّا إذا أصررت على الحضور لقريتنا فلا تلومنَّ إلاّ نفسك".

نظر شاهمندر إلى عيني، و أطرق برأسه، و ذهب لا يولي ظهره. كانت نظرته كفيله لأعلم أنّه ذاهب إلى أمير الظلام ليخبره بوجودي، و أيّ اسم أنتحل ليحلّ بلعنته على أهل القرية، و ينتقم من راج لأجل ما فعله بتابعه.

6

أخذ مارس كوكب الحرب يلمع بلون دمويّ قاتم في سماء سوداء كئيبة بلا قمر، و أختفى فينوس في تلك الليلة. كنت أطالع السماء حينها، و قد علمت أنّ الحرب و شيكة، فلقد جنت هيتيانا هذا الصباح، و أكلت نصف ساريها غيظاً عندما شاهدت ما فعله راج بشاهمندر، و أخذت بارفاتي ورحلت. و أنا على يقين أنّها ذهبت لجدّتها تلك الساحرة العجوز لتجدَ حلاًّ عندها للتخلّص منّي، و هي تظنّني مجرّدَ فتاة تُدعى صفانديا. أمّا ذاك الغبي شاهمندر، فعلى الرغم من أنّه كرة من الجوارب ممتلئة بالأتربة إلاّ أنّه مثل الكاميرا، فبالتأكيد نقل كلّ شيء إلى أمير الظلام، و هو يعدّ العدّة لمهاجمتي، و قتل راج. و لكن أين راج الآن؟

ما أن خطر ذاك السؤال برأسي، حتّى حضرَ براج، و معه شباب القرية قد أتوا تحت نافذتي، و بدأ راج بالغناء، و الرقص، و هم خلفه. كان يمتدح جمالي، و يبثّني كلمات العشق، و الغرام، و الجميع يرقص بفرح. لا أنكر أن ذلك أطربني كثيراً، و لكنّه لم يُنسني أنّ مارس يتوسّط السماء

بغضبه، و هذا يعني أنّ طرقات القرية الترابية ستخضب بدماء الفانين قريباً جداً.

ظلت هيتيانا طوال الليل تحلم بانتقامها من صفاندينا، و تخلّصها منها للأبد، و بتودّد راج لها، و بغنائه لعينيها. ظلّت تحلم و تحلم، و أنا أرى أحلامها، و أضحك، و أغذّي أحلامها، و أمانيها بالمزيد، فأنا سيّدة الأحلام، و يكفيها فزعاً أن تستيقظ على ما يهدم أحلامها، سيكون هذا أقوى من إرسالها إلى أرض الكوابيس، فأنا أكثر رقّة من ذلك، ظننتُ ذلك واضحاً. أمّا المارق أمير الظلام فقد أخذ يعدّ عدته، و هو يغلي، و يزبد من راج، أوسم رجال الأرض، و معبود النساء، ببشرته السمراء الناعمة، و عضلاته المنحوتة من الصخر، و شعره الأسود الفاحم، و صوته الدافئ، فكما كان أدهم صبري فارس أحلام أجيال كاملة من الفتيات، و فاتن بطلات سلسلة رجل المستحيل، فقد جنّت به فتيات القرية، و أثار غيظهم عشقه لصفاندينا تلك الغادة الحسناء، و التي يبغي أمير الظلام الاستحواذ عليها، و لذلك يجهّز جيوشه لاستعادتها، و إرجاعها لأرض الجحيم.

كانت ليلة عجيبة أراهما بعيني أنا صوفيا الجحيم، و أبتسم بسخرية، فكلاهما يبغي راج، هي لتتزوّجه، و هو ليقتله، و لكنّي أنا من أحضرته، و أنا من تستحقّه.

7

أقبل الصباح بغيوم سوداء كثيفة لم تعهدها القرية منذ أنشئت، كانت من الكثافة ما حجب الشمس، فلم تترك بصيص ضوء يهرب من خلف ستائرها الكئيبة.

أخذ كاهن معبدنا أبهشك يركض بردائه الأصفر حافيَ القدمين في طرقات القرية الترابية، مثيراً عاصفة من الغبار الرمادي، و هو ينذرنا بالثبور، و عظائم الأمور، و أن الدماء ستسيل أنهاراً لتخضب أرضنا لعشر سنين. كان من هول كلامه أن دفع الجميع ليختبؤا في بيوتهم، و قد فعلوا إلاّ راج الذي دقّ باب بيتي، و هو يناديني بلوعة و لهفة، فركضت مسرعة أفتح له. دلف، و أغلق الباب خلفه، ثمّ أخذ بيدي إلى حجرة جدّتي، و جلس القرفصاء عند قدمي، و هو يقول: "لن يمسك سوء صافندينا يا حبيبتي، فراج بجانبك دوما".

منحته ابتسامة أضاءت وجهه، و لكنّ عقلي أنا كان في مكان آخر يستطلع مكان أمير الظلام، فتلك الإرهاصات تعني قرب مجيئه.

ما أنْ سمعت هيتيانا كلمات كاهن المعبد حتّى أرتسم على ثغرها بسمة شيطانية، و انتصبت واقفة لتبدأ تراتيل تعاويذها -التى علمتها إياها جدتها- بنغمات راقصة، و هي تتمايل بجذعها كحيّة رقطاء، فارتسمت حولها هالة برتقالية تتحوّل بالتدريج إلى اللون الأحمر، ما أن وصلت للون الدم حتّى انطفأت، و تخضّب لون جلد هتيانا بلون الدم، و أغشي عليها. كنت أراها من مكاني هذا، و أعلم أنّها ما أن تفيق حتّى ستلحق بأمير الظلام ليشنّوا الهجوم. جلس راج تحت قدمي كالتمثال لا يطرف له جفن، و عيناه بعينيَّ يشع منهما الأطمئنان، و الدفء. كان وجود راج يبعث الراحة في قلب صفانديا، لقد أحببت وجود راج كثيراً. و على حين غرّة سمعنا صوتاً عالياً كهزيم الرعد هزَّ القرية هزّاً عنيفاً، كان هذا إيذاناً بقدوم أمير الظلام.

ما أن دوّى الرعد فوق رأس هيتيانا الغافية حتّى هبّت كالملسوعة لملاقاته. كان لقاؤهما ساحراً، فقد رجته هتيانا أن لا يقتل راج، و يتركه لها في مقابل أن تترك له صفانديا، كذب عليها أمير الظلام، و أوهمها بموافقته، و طلب منها أن تذهب أولاً لتأخذ راج سريعاً. ما أن وصلنا صوت الرعد حتّى

ارتجف جسدي، فقد شعرت بالاهتزازات الصادرة عن أمير الظلام، و شعرت بالنار تشتعل بجوفي، دليل نشوته، لقد تمّ الأتفاق بينه و بين هيتيانا. كان راج يمسك بيدي يحاول طمأنتي، أخذت الدموع تتساقط من عينيَّ بغزارة، و أقدم راج على أغرب شيء يمكن تخيله، لقد أخذ يجمع دموعي بين كفّيه ثمّ شربها، لم يكن يعلم أنّه بشربها قد حصّن نفسه ضدّ هيتيانا و أمير الظلام.

أخذ راج يهدهد قلبي بصوت حنون يغنّي لي أغنية بنجابية، و يشير بيديه إلى عينيَّ. الآن يمكنني أنا صوفيا الجحيم المدلّلة أن أعلن أن صورتي الهندية صفاندينا تعشق راج حتّى النخاع.

كانت جدتي تراقبنا بحبّ، و ابتسامة رقيقة تزيّن ثغرها، من يرى ثلاثتنا لا يظنّ أنّ هناك خطراً يترصّدنا.

فجأة ارتفع عواء ذئب خلف نافذة غرفة جدّتي، و أخذ يخمش الباب برجليه بقوّة، فذعرتْ جدّتي، ممّا حدا براج ليخرج لقتله. و هذا ما احتاجته هيتيانا لتنبت من العدم في وسط الغرفة، و يا لوقاحتها! كانت تتظاهر بأنّها أنا، فقد حوّلتْ ملامحها الغجريّة إلى ملامحي، و أحدثت جرحاً قطعيّاً

في كتفها، و أخذت تتأوّه، و تصرخ منادية على راج، الذي أقبل و بين يديه جثّة الذئب، فرماها، و ركض نحوها، و هي تتّهمني أنّي أردت قتلها، و أدّعت عليَّ زوراً أنّي هيتيانا الساحرة الملعونة. ما أن نظر إلى عينيها حتّى عرف الحقيقة، فأمسك بذقنها، و رفع وجهها لتنظر عينيها لعينيه القويّة، و قال لها: "يا لك من حمقاء، كيف تجرّئتِ على التشبّه بحوريّة قريتنا، و سيّدة فتيات الأرض؟، ألا تعلمي أنّني أعشقها، و أعرفها من عينيها، و أن تجسّد شيطانات الجحيم بها. و أنّ ما تجسدك يدلّ على معرفك بمدى عشقي لها، أنصرفي الآن".

لم تحتمل هتيانا كلمات راج، و بدأت تلقي بتعويذاتها علينا، و لكنها كانت بغير جدوى، فقد كانت تنعكس عنّا، و ترتدّ تحت قدميها لتحرق ساريها. و كلّما انعكست تعويذة يجنّ جنونها، و يتحوّل وجهها لمسخ شرس، و بشرتها للّون الأحمر، فما كان من راج إلاّ أن صفعها بقوّة على وجهها، و هو يقول لها: "يا عديمة النفع، يا بلهاء، فأنا جزء من صفاندينا، و هي جزء منّي، أنّ ما تقومين به سيحرقك أنت".

ثمّ حملها كأنّها أرنب، و ألقاها من النافذة. لم تحتمل هيتيانا الإهانة، و قالت: "و إن كانت تعويذاتي عديمة النفع، فإنّ أمير الظلام يملك من وسائله ما تردّ لي كرامتي، و سأراكما ممزّقين أشلاء".

ثمّ رحلت و هي تلعن جدّتها، و تتّهمها بخداعها. ما أن أنصرفت هيتيانا حتّى سألت راج لـمّا ضربها فراج، فكما هو معروف عنه كأدهم صبري لا يمدّ يده لأنثى، فأجابني و هو يزوي بين حاجبيه: "مَنْ قال إنّ تلك الهيتيانا أنثى، إنّها ساحرة شمطاء، تريد أن تؤذيك، ظننت ذلك واضحاً".

ضحكت برقة سرقت قلبه بها، فأخذ يغني لي، و أنا أضحك، و هو يرقص، و يقول: "هيا يا صفانـدينا غني معي، و لا تخشي شيئاً، حتّى السماء برامديّتها الكئيبة لا تخفي وهج عينيك، و وجنتيك المشرقتين التي تُذهب عقلي، و تجعل من قلبي مرجلاً للكلمات أنظمها لك على النغمات".

كانت كلماته هي المفتاح الذي يسرق قلب صورتي صفانـدينا، و لكنّ عقلي أنا صوفيا الجحيم المدلّلة يعمل بقوّة ليري ما يفعله أمير الظلام الآن.

8

ما أن رأى أمير الظلام ما حلّ بهيتيانا حتّى جنّ جنونه، فهذه إهانة له، و توعّد لحليفته بالثأر من راج، و لكنّها أصرّت أن ينتقم من كلينا، فطمأنها بالكذب، فهو لا يبغي إلاّ إرغام صفانديا على العودة إلى أرض الجحيم.

أرسل أمير الظلام معاونه ذئب الجحيم ليأتيه بالأخبار، و الاستعدادات، و قد غمز له بخبث. عوى ذئب الجحيم منادياً قطيعه من الذئاب الرمادية الغبيّة، و انطلقوا في طرقات البلدة الترابية يتشممون البشر، و يقتحمون المنازل عليهم ليهاجموهم، و يمزّقونهم بعنف، و يسقون الأرض بدمائهم الذكية، و التي كانت تجري على سطحها بسرعة حتّى وصلت إلى المعبد حيث الكاهن أبهشك، و الذي خدّره الرعب من هول ما سمع من صراخ، و رؤية الأشلاء و الدماء، حتّى أنّه لم يشعر بأنياب ذئب الجحيم التي أطبقت على رقبته، و لا مخالبه التي عقرت بطنه. ظلّ قطيع الذئاب يهاجم الفانين حتّى أفناهم على بكرة أبيهم إلاّ بيتين، بيت هيتيانا حيث تقبع جدّتها الساحرة العجوز، و بيتي أنا حيث راج الذي جنّ غضباً من أصوات الصراخ، و أراد الخروج لإنقاذ الجميع،

ممّا أجبرني على استخدام قوّتي لأصنع حاجزاً يمنعه من الخروج، و جدّتي التي أغشي عليها ما أن لامست الدماء المتسرّبة من أسفل الباب لقدميها.

ركض ذئب الجحيم بعد أن أنهى مهمّته إلى سيده أمير الظلام ليخبره بما تمّ. هبط أمير الظلام بجناحيه السوداوين يتطاير منهم شرر يحرق الأخضر واليابس، فما كانت تحلّ قدمه بمكان إلاّ و يحوّل إلى خراب. كان يسير بركبه قطيع الذئاب الرمادية بقيادة ذئب الجحيم، و شاهمندر ذو الوجه المتورّم تعلو شفتيه الممزّقة تلك البسمة السمجة، و هيتيانا التي يأكلها الغلّ، و بطير حوله غربان الخرائب السود الناعقة.

كان يتقدم أمير الظلام متسلّحا بابتسامته الخبيثة حتّى وصل إلى بابي خلف حاجز الطاقة الذي وضعته لمنع راج من العبور خارجه، و أخذ ينادي بصوت كالرعد رجّت به حوائط المنزل: "صوفيا فتاة الجحيم المدلّلة، يا فاتنة الجحيم، و كينونته، هلاّ عدتِ معي إلى أرض الجحيم، لقد أنتهى المزاح، هيّا فقد ذبلت جنّيّات الجحيم، و نباتاته حزنا لغيابك".

ثمّ لمس بجناحه سطح جدار الطاقة، و الذي صعقه بطاقة كهربية جحيمية، فارتدّ إلى الخلف، و هو يضحك، ثمّ اعتدل ليواجه الباب، و هو يقول: "أعلم أن جدار طاقتك قويّ جداً، و لكنك تعرفيني أنّه لن يردعني".

ثمّ فرد جناحيه، و توهّج جسده بطاقة رهيبة أضاءت الجوّ بلون الدم، ثمّ نفض جسده لتنهار جدران البيت، و تصيب الصاعقة جدّتي المغشيّ عليها لتفحّمها، ذلك دون أن يهتزّ جدار الطاقة، أو نصاب أنا و راج بشيء.

تملّك العجبُ أميرَ الظلام، فأجبته دون سؤال: "لا يمكنك إصابة راج فقد ارتوى من دموعي".

و بإشارة من طرف سبّابتي انهار جدار الطاقة، و تقدّمتُ أنا وراج لمواجهتهم، و نحن متشابكو الأيدي، و على شفاهنا ابتسامة ساخرة يرى انعكاسها بأعيننا.

جنّ جنون أمير الظلام، فأشار إلى تابعه ذئب الجحيم تجاه راج، فقام منطلقاً بقطيعه تجاه راج الذي أخذ يكسر عظامهم بلكماته، و ركلاته. كانوا يتساقطون تحت قدميه كالذباب، و هم يعوون عواءً مؤلماً. أشار أمير الظلام

لشاهمندر لملاقات راج، فأبى و ركض مختفياً من المعركة، و هو يشيعنا بابتسامة لزجة. تمتم أمير الظلام بتعاويذ الحرق حتّى يهلك شاهمندر قبل أن يصل أرض الجحيم، و كنت أراقب المشهد، و أنا أضحك.

لم تكد تمرّ خمس دقائق إلاّ و راج قد حوّل قطيع الذئاب إلى كومة من الجثث المتكسرة. لقد كان منظر ما تبقّى من جثّة ذئب الجحيم، الذي قضي عليه راج بقبضة فولاذية في عنقه فتّت عظامه النارية و أطلقت لهيباً أحرق جثّته قبل أن تسقط بين قدمي راج كومة من الرماد السيّء الرائحة مرعباً.

لم يجد أمير الظلام بدّاً من أن يتدخّل بنفسه لمواجهة راج، فما كان منّي إلاّ أن أقمتُ حاجزاً من اللهيب حول راج يعيق أمير الظلام من أن يمسّه، فالتفت إليَّ غاضباً، فابتسمت له بأن حانت لحظة المواجهة، ثمّ ابتدأتُ أتألّق بلونٍ أبيضَ مشوبٍ بالحمرة، ثمّ اجتمعت حولي جنّيّات الجحيم، و حيّات الأرض، و أشعّت عينايَ بريق النار. فَرَدَ أمير الظلام جناحيه، و ضمّهما بقوّة مرسلاً تيّاراً من الكرات الناريّة التي تلقّفتها الحيّات لتتفحّم، غضب أمير الظلام، و

أرسل صواعق الرعد و البرق، فأمسكت بها جنّيّات الجحيم. و قبل أن يبلغ الجنون حدّه أشرتُ إلى الجنيات بأن تتراجع، ثمّ رفعتُ أصبعي تجاهَ أمير الظلام، فتيبّس وسقط أرضاً ليصبح هو و الأرض سواء، حاول تحرير نفسه دون جدوى. و لكنّه وجدني بداخل عقله أحدّثه قائلة بنبرة ساخرة كانت تحرقه: "أوه عزيزي المارق، لقد كنتَ تشتهي لقائي أنا صوفيا الجحيم المدلّلة، تحلم بإذلالي و إعادتي إلى أرض الجحيم، و ها أنا ذا أسقيك من جحيمي، ها أنت ذا تشوي و لا تستطيع طلب النجدة أو حتّى تصرخ، و لا يمكنك التزحزح قد أنملة".

ثمّ صمتُّ دقيقة أتلذّذ برائحة شوائه، ثمّ أردفت: "و لكنّي سأطلق سراحك على إلاّ تعود إلى هنا مجدّداً، و أنت تعرف ما هي عقوبة الحنث بالوعد مع أباطرة الجحيم، و خاصّة معي أنا".

ثمّ أطلقته ليتوعّدني بمواجهة أخرى في غير ذاك الزمان، و المكان. برحيله صرفت الجنّيّات، و رفعت حاجز النار عن راج، و الذي كان يتميّز غيظاً لتجنيبي إياه الصراع، و إمعاناً فيه منعته من مشاهدته. ابتسمت له

برقّة، فأنا لم أكن أريده أن يرى ما حدث، لم يستطعْ أن يقاوم ابتسامتي، فبادلني الابتسام، ثمّ جال ببصره في الخراب حولنا، و قال ضاحكاً: "و الآن يا محبوبتي صفانديا إنّها النهاية كما أرى، ماذا نفعل؟، هل نرحل إلى قرية أخرى لنتزوّج، و نحيا بسعادة؟ أم.... لا يمكنني أن أكمل".

نظرتُ له بحبّ، و أجبته بابتسامة وديعة: "حبيبي راج لقد عشقتك صورتي صفاندينا حتّى أنّها تمنّت أن تتزوّجك، و لكنّها أحدى صوري، و لقد انتهت إجازتي، كما يجب أن تعود لشخصيّتك الحقيقيّة أدهم صبري، و تعودَ إليَّ منّي، فقد افتقدك عالم المخابرات يا عزيزي".

ضحك راج، و خلّل شعره بأصابعه، و قال: "عزيزتي صوفيا لقد نسيتُ كوني أدهم صبري، و لقد افتقدت كوني رجلَ مخابرات خارقاً، و لكنّي لا أنكر أنّي أحببتُ تلك النكهة الهندية، و أحببتُ تلك المغامرة، فقد كانت خلافاً لكلّ مغامراتي في رجل المستحيل".

نظرتُ له بلطف، و قلت بخيبة: "الوداع راج، سأعيدك يا أدهم إلى حيث تنتمي، و أعود أنا إلى أرض الجحيم".

أجابني برقّة: "الوداع صفاندينا على وعد منك باللقاء مجدّداً في أحدى إجازاتك العجيبة".

نكهة اسبانية

1

لم أعدْ إلى أرض الجحيم سوى سويعات بزمن الفانين، إلاّ و كعادتي أنا صوفيا الجحيم المدلّلة، و التي يعرفها الفانون باسم كينونة، أشعر بالملل من أرض الجحيم، و أرغب في الرحيل إلى حيث الفانين. تركتُ جناحي المترف، و ذهبتُ إلى أبي الكونت فلاد لأخبره برغبتي في الرحيل إلى أرض الفانين حتّى أتخلّص من هذا الملل، هاج أبي العزيز، و قال بغيظ: "أوه يا صوفيا المدلّلة إنّك هنا منذ دقائق جحيميّة قليلة، حتّى أنّك لم تلقي أخوك لوسيفير، و لم تحادثي ملكات الجحيم السبع".

أجبته بابتسامة دلال، و قلت بصوت ملول: "أبي لقد مللت أرض الجحيم بصراخها، و دمائها، و لهيبها، كما أنّ ذاك المأفون المارق أمير الظلام قد دمّر إجازتي، و أنا أريد أن أقضي إجازة ممتعة".

زفر أبي، و سألني: "إلى أين هذه المرّة؟، لا أخالك تعودين إلى الهند مرّة أخرى، أم تفتقدين راج؟"، ثمّ غمز بعينيه.

ضحكت بقوّة، و أجبته: "كلاّ فأنا أريد الذهاب إلى أسبانيا حيث جمال الغجر، و السحر الممزوج".

أشار أبي إليَّ محذّراً، و هو يقول: "لن ترحلي إلى هناك بدون أخيك الصغير أيف، و وصيفتك ماريا حتّى أطمئن عليك".

حان دوري لأزفر، و إن أضطررتُ للموافقة على مضض، و تركته راحلة. كان أبي قلقاً عليّ، و لا يرغب في رحيلي، لكن لمكانتي عنده لا يستطيع أن يرفض. أخذ يذرع الغرفة قليلاً، ثم تذكّر من يملك القدرة على منعي، أنّه نبع الجحيم، ذاك البهي الذي نستمد منه قوانا. ركض أبي إلى حيث نبع الجحيم، و الذي استقبله بضحكة، و قال له: "عزيزي فلاد أنا أيضاً لا يمكنني أن أثني صوفيا الجحيم المدلّلة، فهي الأثيرة عندي، و لكن كن مطمئنّاً فإنها بحمايتي".

خفض أبي رأسه مخذولاً، ثمّ تركه، و عاد إليَّ فوجدني أودّع الجميع، و أرحل مع إيف، و ماريا إلى أسبانيا الدموية. أمّا نبع الجحيم، فكان يبتسم بإشراق، فقد قرّر أن يدخل معي مغامرتي التالية لحمايتي دون أن يطلع عليها أحداً حتّى أنا.

2

كان إيف متوتّراً كعادته، و كثيرَ السؤال عن وجهتنا، حتّى أنّني صحتُ فيه أن يصمت، حاولتْ ماريّا أن تخفّف عنّي، و لكنّي كنتُ غاضبةً لإصرار أبي على اصطحابهم معي. فقلتُ لهم بعد أن أخذتُ نَفَساً عميقاً: "اسمعاني جيداً، إنّنا ذاهبون إلى أسبانيا الدموية حيث السحر الممزوج، و ليست أسبانيا برشلونة و مدريد، ظننت ذلك واضحاً، فلتتنكّروا حالاً".

ثمّ بدّلت هَيأتي لأصبحَ صوفيا تلك الفتاة التي تتمتّع بجمال غجري، و شعر فاحم طويل، و بشرة سمراء، ذات عيون سوداء، و رموش طويلة. أخذ إيف بتنكّري، و أطلق صفيراً طويلاً ممّا أضحكني، ثمّ أخذت أنظر إليه متفحّصة، فإذا به شاب رفيع باهت الألوان، أمّا وصيفتي فتنكّرت بغجريّة ترتدي خماراً أبيضَ، أخذتُ أضحك، و أنا أقول لهما "فلتبدأ المغامرة".

أخذت أسير بمعيّة إيف وماريا، و قطيع من الرجال الأغبياء الثملون يمطرونني بكلمات الغزل الوقحة، ممّا أثار حنقي الشديد، فأدرتُ وجهي ممتعضة، فثار بغل منهم، و

حاول أن يمسكني. اعترضه إيف، فضربه، و ألقاه أرضاً، و سبّ ماريا، و قبل أن يقترب منّي، ظهر فتى يشبه آلهة الأوليمب في المثيولوجيا الآغرقية إلاّ أنّه أسمر بعيون سود، قام بضربه حتّى سال منه الدم، فتركه، ثمّ قال له: "إياك و الاقتراب منها. قف يا بغل، فأنا لا ألوّث يدي إلاّ بدماء ثور هائج".

قام الغبي، و رحل مسرعاً خائفاً، أمّا الشاب فقبّل يدي، و هو يرفع قبعته، و يعرفني بنفسه قائلاً: "خوسيه دي ماريا، ميدتور".

ابتسمتُ له بدلال، و قلت له: "و أنا صوفيا دي سوزا".

بادرني بابتسامة عريضة، و قال: "هل لي أن أصحب فاتني في جولة، ثمّ إلى حلبة الثيران"؟

هززتُ رأسي موافقة، و أشرت لإيف، و ماريا أن يلحقا بي، و انطلقنا.

3

كنتُ أسيرُ في الطرقات، و خوسيه ممسك بيدي بقوة، و إيف يسير خلفي بجانب ماريا، و هو يهمهم بتوتّر، ممّا أثار حفيظتي، فأحمرّ وجهي غضباً، فمالت ماريا على أذني مهدّئة، ثمّ قالت لي: "لتحكمي خمارك على شعرك، فمع عينيك الجمريتين، و خدود التفاح تثيرين جنون الجميع".

نظرتُ إليها مستفهِمة، فأشارتْ إلى السكارى الذين ينظرون بفظاظة، كانت هي السبب في توتّر إيف. أخذت الخمار من يدها، و قبل أن أرتديه اعترض طريقنا سكير كالبغل، و حاول اختطافي، فما كان من خوسيه إلاّ أن ضربه بلكمة في وجهه كسرت عنقه، فهاج جموع السكارى، و حاولوا الفتك بخوسيه غير أنّهم ما أن أقتربوا منه، و تلاقت العيون حتّى رجعوا برعب، و هم يتخبطون. انبهر إيف بخوسيه، و قال له: "أنت كالمارد خوسيه، علّمني كيف أكون مثلك".

أعاد خوسيه خصلة متمرّدة من شعره، و قال لي بحزم: "أحكمي خمارك صوفيا".

ثمّ التفتَ لأخي، و قال: "هيّا بنا إلى نُزُلٍ قريب لنتحدّث قليلاً".

أحكمت ماريا خماري، و أمسك بي خوسيه، و هو غاضب بشدّة. أمر خوسيه النادل بأنْ يجهّز غرفة، و يعدّ مائدة الطعام و الشراب. دخلنا إلى الحجرة، و رفعت خماري، و جلست إلى المائدة، و إلى يساري ماريا، و على يميني خوسيه، و إيف قبالتي. أمسك خوسيه بالدجاجة، و قسمها، و أعطاني جزءاً منها، و دعانا إلى الطعام قبل الحديث. كنت أتأمّله، و هو يأكل كان ساحراً، رفع نظره إلى، و ضحك، و قال لي: "هلاّ أكلتِ يا فاتنة، و إلاّ أكلت طعامك".

ابتسمتُ، و شرعتُ في تناول الطعام. أنهى خوسيه طعامه، ثمّ قال: "و الآن يا صوفيا ألن تُعرّفيني على رفاقك؟".

أجبتُهُ: "هذا ألبرتو أخي غير الشقيق، و أنا أدلّله بايف، و هذه مُرَبيتي، و وصيفتي ماريا".

ضحك خوسيه بقوّة، و أشار إلى إيف، و قال: "من الواضح أنه غير شقيق، فهو باهت الملامح".

غضب إيف، و توتّر، فأكملتُ: "إنّ أبي من سادة مدينتنا، و هو شاب فُتِنَ بأمّي، و هي غجريّة، فتزوّجها سراً، و أنجبني. فقد كان يخشى أن يحرمه والده من لقب العائلة، و إرثها. ثمّ زوجه جدّي بفتاة من الطبقة الأرستقراطية الألمانية حتّى يمدّ نفوذ تجارته إلى هناك، فأنجب منها إيف، و لكن لسوء الحظّ ماتت بعد ولادته دون أن تراه، فنشأ إيف بين يدي المربّيات حتّى مات جدّي، فقامت أمّي برعايته، و لذلك تجده متوتّراً دائماً يخشى كلّ شيء".

نظر لي خوسيه بعينين ناريتين، و قال: "أجل أنت يا صوفيا الجحيم يا ذات الدم الحار"، ثمّ التفت إلى إيف، و قال: "هيّا بنا إلى الحلبة، فهناك ثور هائج غبيّ أريد أن أؤكلكم أياه".

4

مع إصرار خوسيه على أرتداء خماري، لم يكن هناك بُدٌّ من ذلك، فأمسكت ماريّا بالخمار لتحكمه، فالتفت لها خوسيه، و أمرها بأن تُخفي به وجهي تاركة عينيَّ، حاولت الاعتراض، لكنّه أبى، و قال: "يكفينا سحر عينيكِ الناريّتين فاتنتي، فأنا لا أريد التأخّر على الحلبة لأجل قتل عشّاقك حبيبتي".

تورّدت وجنتاي مع حروف (حبيبتي)، و أطرقتُ خَجِلَةً، فانحنى لي، و قال بحبّ: "أجل فاتنتي الناريّة أحببتُكِ منذ وقعتْ عيناياَ على مُحَيّاك، سرقتِ قلبي بفتنتك، و صرتُ بِكِ مجنوناً، سأهديكِ لحمَ الثور هديّةَ عرسنا فتاتي".

قبل أن أجيبه اقتحمت الغرفة سيّدة أرستقراطية غاضبة هاتفةً: "ماذا يحدث هنا خوسيه؟".

التفت لها خوسيه محمرّ الوجنتين، و تمتم بخفوت. تقدمتْ حتّى حالت بيني و بينه، و صرختْ في وجهه: "خوسيه هل جننت؟، ماذا دهاك؟، هل هذا خوسيه أعظم ميدتور في أسبانيا، الذي تركض وراءه الأميرات، و

الفاتنات، و لا يلتفت لهن؟، هل أصابك الخبل لتقبّل يد فتاة غجريّة غريبة عن بلدتنا، و تدافع عنها باستماتة كأنّها فتاتك؟، هل تظنّ أنّي سأقبل بزواجك منها؟، أنا مرجريتّا دي ماريا ابنة أعظم نبلاء قرطبة يتزوّج ابنها خوسيه تلك الغجرية، حتّى إليخاندرو أخوك الأصغر ما كان ليفعلها على تهوّره، و رعونته".

كان يستمع إليها كتلميذ منكّس الرأس، لم أحتمل أن أراه هكذا، فركضت من الغرفة، و معي إيف الخائف عليّ، و وصيفتي. التي تحاول تهدئتي، كنت أبكي لأوّل مرّة أنا صوفيا المدلّلة، و هذا ما عذّب إيف، و جعله يركض ورائي، و هو يناديني بصوت مليء بالبكاء، و ماريّا العجوز تحاول اللحاق بنا، و هي تنادي.

5

لم يحتمل خوسيه تَركي له بهذه الصورة، فأخذ يركض ورائي، و هو لا يعي شيئاً إلاّ اللحاق بي. كانت أمّه تصرخ منادية عليه، و هو لا يسمعها، فقد كان ينادي عليَّ بلوعة المحبّ العاشق: "صوفيا ".

لم تستطع مربّيتي اللحاق بي، فسقطت أرضاً، شعر بها إيف، فأخذ يناديني لأتوقّف قليلاً. وقفت و تركته يُمسك بها لينهضها، و كان لهذه الدقائق الثمينة أهميتها عند خوسيه، فقد كاد يلحق بنا لولا أنّي أشرتُ إلى عربة تجرّها الخيول، فسمح راكبها لنا بمشاركته العربة حتّى النهر. كان الشاب صاحب العربة يدعي إليخاندرو يشبه خوسيه إلاّ أنّه أنحف، و أقصر، و ملامحة خالية من الثقة، و السحر اللذينِ يمتلكهما خوسيه. سأل أليخاندرو إيف عمّا يبكيني، فأخبره بما حدث من والدة خوسيه. كان يحدّثه إيف، و هو ممسك بيدي يقبّلها مهدّئاً، و مربّيتي تحتضنني، و أنا أدفن رأسي في صدرها، و أبكي. كان إيف يبكي لنحيبي، فلم يستطع أليخاندرو أن يحتمّل، فأمر السائق بانزالنا، و هو معنا، ثمّ همس للسائق بكلمات خفيضة جداً. كان أليخاندرو لطيفاً،

سار بنا إلى النهر، و هو يحاول تهدئتي، حتّى وصلنا، فافترشنا شاطئه، و أنا أنظر إلى عينيَّ الحمراوَين على صفحته، و لكن ويا للهول أرى فيهما صورة خوسيه حبيبي، فأجنّ بالبكاء. حنّ لي أليخاندرو ، و أخذ يمازحني قالاً: "دعيني أرى وجه الفاتنة التي جعلتني أترك كلّ شيء لأصحبها إلى النهر".

لم أرد فكّ خماري لولا ماريّا التي حَلّته، و تركت شعري الطويل يداعبه النسيم، أطلق أليخاندرو صفيراً طويلاً، ثم قال: "سنيوريتّا إنّك فاتنة ساحرة، و إنّي لأغبط خوسيه كثيراً".

لم أجبه، و لكني ألتفتُّ إلى صوت دافئ غاضب يقول: "ألم أخبركِ يا صوفيا ألاّ تحلّي خمارك أبداً؟".

طلّت الدهشة من عيني، و أنا أتطلّع إلى خوسيه الغاضب. التفت إلى خوسيه بعيون تفور منها دموع قلبي، لم يحتمل خوسيه دموعي، فنسي غضبه، و أخرج منديله، و بدأ يمسح دموعي. كان مرتبكاً ملهوفاً عليَّ، يريد تهدئتي، قال بصوت حنون دافئ: "أوه يا حبيبتي، صوفيا كفى بكاءً أنا بجوارك".

أمسكتُ بيده، و قلتُ له بغضب: "لا تقل حبيبتي، لقد خذلتَني".

هتف خوسيه مدافعاً عن نفسه: "كلا بالطبع، و لكنّها أمّي مارجريتا دي ماريا، و ابنة أحد نبلاء قرطبة، و هي كجدّك ترتّب الزيجات لأبنائها، و لكنّي لن أتزوّج غيركِ حتّى لو قتلتْني".

أخذتُ منه المنديل، و مسحتُ دموعي. كان إيف و ماريا يتابعان ما يدور باهتمام، في حين وقف أليخاندرو يقف بعيداً يراقب صفحة النهر. أمرني خوسيه، بغضب، أن أُحْكِمَ خماري على وجهي، فأمتثلت لأمره، سأله إيف باهتمام: "خوسيه كيف أهتديت إلينا؟، لقد رحلنا في عربة أليخاندرو قبل أن تصل إلينا".

ضحك خوسيه و أليخاندرو بقوّة، و وضع أليخاندرو يده على كتف خوسيه، و قال: "أنا من أرسلت له العربة لتحضره إلى هنا، فخوسيه أخي الأكبر".

ضحكنا جميعاً، ثمّ أمسك خوسيه بيدي، و أشار للجميع أنّ علينا اللحاق بحلبة مصارعة الثيران، فقد بقي على

جولته نصف ساعة. و أثناء سيرنا كنت أشعر بلهيب حُبّه لي يدفئني كشمس الخريف بنتقّل من أنامله الممسكة بيدي، و لكن هذا لم يمنع الغيرة و القلق من أن يشعلا قلبي، فاندفعت سائلة: "خوسيه، من هي الفتاة التي ترغب والدتك بتزويجك بها؟".

ردّ خوسيه بعدم اهتمام، و هو يكمل سيره: "إنّها روزاليندا، ابنة أحد كبار نبلاء هولندا".

أكلتني الغيرة منه، و من عدم أكتراثه، فسألته محتدّة: "هل رأيتَها خوسيه؟، صفها لي".

ضحك خوسيه، و توقّف، و نظري في عينيَّ المشتعلة بالغيرة، و قال: "آه من تلك العينين الساحرتين فاتنتي، و هل هناك أجمل من صوفيا في ربوع أسبانيا بل في أوروبا؟، التي جمعت سحر الشرق، و الغرب. أعشقك حبيبتي".

لم أستطع أخفاء بسمتي، و فرحتي، و خجلي. كما لم أستطع أن أتجاهل فضولي، فرجوته مرتبكة: "خوسيه، صفها لي، أرجوك".

ضحك خوسيه قائلاً: "صوفيا الساحرة غيّري من تلك الروزاليندا على الرغم من أنّها لا تعني لي شيئاً، و لكنّي لا أملك إلاّ أن أجيبك ساحرة العينين. إنّها زرقاء العينين، شقراء ممشوقة القوام مثل أي نبيلة هولندية، هل رضيت فاتنتي الآن؟".

تمتمتُ: "تلك الباهتة تريد اختطافك مني، غبيّة فخوسيه لي أنا".

ثمّ قلتُ بصوت مرتفع بهيج، و أنا أدفع خوسيه للركض: "خوسيه حبيبي، لنسرع فأنا متشوّقة لرؤيتك تصارع ذاك الثور الغبيّ، و تؤكلني لحمه بيديك".

ضحك خوسيه، و ركض معي، و خلفنا ركض الجميع، و لكن ما أن اقتربنا من الحلبة حتّى أخذتنا الصدمة.

6

أخذ أبي الكونت فلاد يذرع غرفته ذهاباً و إياباً، و هو يتمتم غاضباً: "لم يجدر بي أن أسمح لصوفيا أن تذهب إلى أرض الفانين، و لقد أخطأت بأختيار إيف، و ماريا للذهاب معها".

دخل أخي لوسيفير يسأل أبي: "أين صوفيا، و ايف يا أبي؟. لقد عدتُ من سفري لأعطيهما هداياهما، و لم أجدهما في أيّ مكان بأرض الجحيم. كما أن ماريا مختفية".

زفر أبي، و أجابه: "لقد رحل ثلاثتهم إلى أسبانيا".

غضب أخي لوسيفير، و قال: "هل سمحتَ لصوفيا بالرحيل مرةً أخرى؟، إنّها لم تكد تعد من الهند، إنّها تتصرّف بغرابة منذ وفاة رفعت اسماعيل، فأصبحت مغرمة بالعيش بين ألفانين. لما لم تمنعها يا أبي"؟

نظر أبي إليه، و غمز بعينيه له سائلاً: "و هل تستطيع أنت؟".

ضحك لوسيفير، و قال بخبث: "بالطبع لا فيكفيها أن تقول لوسي حتّى أجيب طلبها، و هل يوجد في أرض الجحيم من يستطيع أن يرفض لها طلبا؟".

بادله أبي بالضحك، و قال: "أجل لا أحد يستطيع أن يرفض لها طلباً حتّى نبع الجحيم ذاته لا يستطيع ذلك، فهي صوفيا الجحيم المدللة".

قال لوسي بمكر: "إنّه خطؤك يا أبي، فأنت من دلّلتها بأفراط".

ردّ أبي: "و لقد تلافيته مع شقيقاتها، و لكن ما أخشاه، أن يطلبن الرحيل خلفها أو السفر إلى أماكن أخرى".

لم يكد ينهي أبي كلامه حتّى طرقت أَخَواتي الثلاث الباب، و طلبن الإذن بالدخول، فسمح لهنّ، تقدمت لي لي، و هي أكثرهم جرأةً، و قالت: "أبي أسمح لنا باللحاق بصوفيا، فقد مللن الجحيم بدونها، كما أنّنا نبغي أن نستمتع بإجازة مع الفانين كصوفيا".

غمز أخي لوسيفير إلى أبي فيما معناه: هذا ما كنا نخشاه.

صمت أبي لدقيقة، و فكّر: لو رفض سيغضبهن، و سيتشاجرن معي، و إن وافق فستفرغ أرض الجحيم، و لكنه يبغي كأب حنون أن يرضيهنّ، فوافق. ابتسمت أخواتي، و طرنَ لمخادعهنّ ليجهزن أنفسهم لسفر إلى في اسبانيا.

تجمع ثلاثتهن عند بوابة الخروج، كانت شيما أكثرهنّ حماسةً، قالت: "سأرحل بأسم نيفادا، و أنتن".

ردّت دندن بمرح: "و أنا إلينا".

وقالت لي لي: "و أنا كاترينا، و لنكن بنات عمّ صوفيا، آل دي سوزا، تري هل ستسعد صوفيا بحضورنا؟".

7

ما أن وصلنا إلى مشارف حلقة الثيران حتّى وجدنا مرجريتا دي ماريا تقف كالتنين تنفث نيران غضبها، و بجوارها تلك الباهتة التي أخذت ترميني بنظراتها المسمومة، ثمّ ركضت في اتّجاه خوسيه. وقف خوسيه، و أشار بيده إليها لتقف قبل أن تصل إليه، و سألها غاضباً: "لِمَ أنتِ هنا روزاليندا؟".

توقّف روزاليندا، و أجابته، و هي تنظر إليَّ بشرر: "أوه خوسيه الحبيب ألستَ خاطبي؟، جئتُ بالطبع لأشجّعك".

في تلك الأثناء لحق بنا ايف، و أليخاندرو، و ماريا، و على وجوههم علامات الأستفهام. ردّ خوسيه على روزاليندا محتدّاً: "كلا يا روزاليندا لستُ خاطبك، و لا تعنين لي شيئاً، إذا أردت التشجيع فهذا حقّك، فهدف الصراع أمتاع الجميع".

لحقت بنا أمّه، و قبل أن تتحدّث، أمسك بي خوسيه، و قادني، و ايف، و ماريا، و أليخاندرو إلى داخل الحلبة، و هو

يقول: "هيا حتّى أجلسكم في مكان مناسب للمشاهدة، قبل أن أستعد".

حاولت مارجريتا الإمساك بخوسيه، و لكنّها لم تستطع، فأمسكت بإليخاندرو الذي توقّف مستفسراً، فبادرته غاضبةً: "إليخاندرو كيف تجرؤ على عصياني؟، بدلاً من أن تعيد لخوسيه عقله، تعينه على إغضابي".

نظر إليها مبتسماً، و قال: "أمّي إنّك غاضبة لأنّ خوسيه لأوّل مرّة في حياته يخالفك، و له الحقّ يا أمّي فقلبه خفق لصوفيا، تلك الفاتنة، و كيف يفضّل أخرى عليها؟. ثم أليس هذا خوسيه الذي ربيتِني لأكون مثله؟، دائما كنت تطلبين منّي أن أكون كخوسيه، فحنانك له وحده، و حبّك له، أردتِني مثله، و عندما لم أستطعْ أن أكون ميدتور مثله غضبتِ، و أوكلتِني أمورَ العائلة المالية، و على الرغم من تفوقي فيها لم ترضَيْ عنّي".

كانت تنظر إليه فاغرةً فاها من الدهشة. نزع ذِراعه من يدها، و ذهب ليلحق بنا، فقالت له: "ألهذه الدرجة تكرهني أنا و خوسيه. فتريد تدميره؟".

نظر إليها بشفقه، و قال: "كلاّ يا أمي، فأنا أحبّكما، و سعدت بتمرّد خوسيه، فهو لي كالخلاص من تلك الدائرة التي أجبرتِنا على الدوران فيها".

ركض إليخاندرو، فقد بدأت حشود المشجّعيين تتزاحم على الباب. قالت روزإليندا غاضبةً: "ماذا سنفعل الآن؟، هل سنتركه يتزوّج تلك الغجريّة؟، ألن نلحق بهم لننقذ خوسيه؟".

ردّت مارجريتا بضيق: "كلاّ بالطبع لن نتركه، و لن ندخل بل سنذهب إلى العرّافة على مشارف البلدة، و نطلب مساعدتها، هيّا بنا".

يا لها من سيدة غريبة ترفض زواجي من خوسيه لأنّي غجريّة، و لكنها تذهب إلى غجريّة تخبرها بالطالع، و تساعدها على تفريقنا.

8

أنا على يقين أنّ هناك سرّ في إليخاندرو، فلقد تركنا لعشر دقائق كاملة، و هو يحادث أمّه. و على الرغم من الجحافل المتزاحمة للجلوس في أفضل المقاعد وجدته يجلس بجانب ايف المتوتّر، و على ثغره بسمه. لاحظتْ ماريا توتّر ايف الشديد، فحاولت تهدئته دون جدوى. فقلت له: "كنتَ تتمنى أن نكون في أسبانيا برشلونة و ريال مدريد حتّى يتسنى لكَ أن تبثّ التوتر في الجميع، و لكن جئنا إلى أسبانيا الدموية حيث مصارعة الثيران، كان توتّرك في اسبانيا الأولى لا يضرّ كما الثانية، فبنقل توتّرك إلى الجميع، و خصوصا خوسيه قد يتسبب في مقتله".

بهت ايف، و سأل بتوتّر رهيب: "ما العمل صوفيا؟".

نظرتُ له بشفقة، و أجبتُهُ: "كانت نقمة جحيمية التي جعلتْ قدراتُك هي التوتّر الرهيب، اهدأ سأحمي خوسيه من نقل توترك إليه".

في هذه الأثناء دخل خوسيه الحَلَبة، و أرسل لي قبلة، و أخذ يدور في الحلبة مستعرضاً قبل دخول الثور، الذي

أدخلوه خِلسةً، فطار في اتّجاه خوسيه يبغي قتله، فناوره خوسيه. إذْ كان مناوراً محنّكاً يعرف كيف يسيطر على الثور، كانت مباراة تسرقُ الأنفاس، و ما كانت أعظمها فرحة عندما أعتلى ظهر الثور، و هو يهتف باسمي.

و بينما كنا نشاهد خوسيه يصارع ذاك الثور الهائج كإعصار كاترينا، كانت والدته تصحب تلك الباهتة روزاليندا إلى خيمة سوداء معروفة للغجر لتعرف الطالع، و تستنجد بالساحرة الينورا حتّى تنقذ ولدها خوسيه منّي كما تعتقد. ما أن دخلت الخيمة حتّى وجدت الينور ذات عينين واسعتين سوداوين مزينة بكحل سميك، و بشرة شديدة السُّمْرة، و شعر منفوش أسود اللون. ابتدرتها الينور بقولها: "أهلا بالنبيلة مارجريتا دي ماريا، و النبيلة روزاليندا، تفضّلا".

انتاب الذهول مارجريتا، و روزاليندا ، فتوقّفتا لحظة لتتمالكا نفسيهما، ثمّ جلستا قبالة الينور، و التي تحدّثت بصوت مهيب: "لقد أتيتِ لي يا سيدتي حتّى تعرفي طالع خوسيه الذي أُغْرِمَ بصوفيا، و أرى في علمي أنّه سيتزوّجها".

غضبت مارجريتا، و هبّت واقفة، فأشارت إليها الينور أن تجلس، و أردفت: "يمكنني المساعدة".

جلست مارجريتا، و هي تنتظر بشغف، في حين اندفعت روزاليندا، و قالت: "هل تستطيعين أبعاد خوسيه عن صوفيا، و تزويجي إيّاه؟".

ضحكت الينـاور بجزالة، و ردّت: "أجل يمكنني".

"كيف؟" سألتها روزاليندا بلهفة.

أجابتها الينور: "ببساطة سأعطيكِ سُمّاً تقومي بغمس سَهم فيه، و تجعلي أحد خُدّامك يقذفه في قلبها، و بذلك تنتهي ببساطة".نظرت لها مارجريتا بفرح، ثم أستدركت، و سألتها: "و لكن لما تساعديننا، و هي غجرية مثلك؟".

ضحكت الينـاور بقسوة، و أجابتها: "هي نصف غجرية، فأمّها منّا تركتنا، و هربت لتتزوّج أحد نبلاء أشبلية، و ها هي ذي ابنتها تريد الزواج بنبيل آخر. إنّ علمنا يا سيّدتي يجب ألاّ يشاركنا فيه غيرنا، و دماءنا يجب ألاّ تختلط بغيرها".

ابتسمت مارجريتا، و روزاليندا. و انطلق ثلاثتهم إلى حلبة المصارعة.

9

إنّه جنون الحبّ، هذا ما تملّكني أنا و خوسيه، ذاك المديتور الوسيم. كان ينادي باسمي من فوق ظهر الثور، و هو يقضي عليه. نزل من على ظهره، و قال بقوة أمام الجميع: "صوفيا دي سوزا لقد وعدتُكِ أن أهديكِ أشرس ثيران أسبانبا، و ها أنا ذا قد وفيت بوعدي، هل تقبلين الزواج منّي؟".

أوه يا خوسيه كم أحبّك!. لقد سرقتني من بين الجميع بقوّة عشقك لي. نظر الجميع إلي، و قد تخضّب وجهي بحمرة الخجل حتّى أنّه صبغ خماري الأبيض بحمرته، لا أدري لماذا أحبه بجنون؟، ماذا فعل ليملك قلب متمرّدة قويّة قاسية مثلي؟، أنا مَنْ حصّنتُ قلبها، و روحها من الجميع، تضعف أمام نظرة حبّ من عينيه، أجلْ خوسيه أقبل أن أكون زوجتك، و هاك جوابي. ألقيتُ له عقدي، فتلقّفه بسرعة، و ركض نحوي أمام الجميع، و هو يقول: "صوفيا يا أجمل بنات الأرض. ستكونين زوجتي الحبيبة اليوم".

خرجنا من الحلبة، و يدي تعانق يد خوسيه بحبّ، و عيوننا تتلاقى بعشق مشوب بالخجل. كان اليخاندرو و إيف

يتقافزان فرحاً أمامنا، أمّا ماريا فقد كانت تسير خلفي، و من ورائها الجموع يهتفون لنا. كانت السعادة تعصف بقلبينا بنار تُدفئ لا تحرق. اليوم سأكون زوجة خوسيه، سأزف له عروساً بفستان أبيض. أه يا خوسيه، أحبّك. و فجأة شقّ سهم من بين فروع الشجر في اتّجاه قلبي، و قبل وصوله بسنتيمتر واحد أمسك به اليخاندرو، و كسره. كانت الصدمة رهيبة، جعلت ماريا تقفز إلى محتضنة، و خوسيه يقف أمامي ليحميني، في حين أظهر اليخاندرو قدراته السحرية في كشف المختبئين خلف الاشجار من أطلقوا السهم الغادر، فإذا بهم مارجريتا ، و روزاليندا، و الغجرية الينـاورا، و بيد الينـاورا القوس. و بإشارة من يد اليخاندرو أشتعلت النيران في الأشجار المحيطة جعلهنّ يهربنَ. نظر إيف إلى خوسيه، و قال: "علينا بالسفر إلى إشبلية حيث قصر عمّي الحاكم، فالمكان هنا خطر جداً".

وافق خوسيه، و أخذ يَربتُ على يدي مهدهداً، و أنا منفطرة بين ذراعي ماريا. بإشارة من يد البخاندرو ظهرت عربة سفر تجرها الخيول، ساعدني إيف و خوسيه، لحقت بي ماريا، و أخذتني بين ذراعيها الحانيتين مهدهدة، و جلس

إيف بجواري يربتُ على يدي عسى ينتهي نحيبي. كنت أراقب خوسيه الجالس بجوار اليخاندرو السائق للعربة. كنت أحادث نفسي: "آه خوسيه كم أحبك. يقولون عنّا نحن أهل الجحيم أنّنا أصل الشرور، و يا للعجب إنّ من شرّ الفانين ليتعلّم الجنّ كيف يوصل الحقد للقتل؟. الكبيرة التي فرّقت ابني آدم أحدهما للجحيم، و الآخر للنعيم ".

ألتفتُ إلى خوسيه، فقد تظاهرتُ بالنوم بين ذراعي ماريا، و إن كنت أتابعه من بين رموشي. ظلّ خوسيه يراقبني متأمّلاً متمتما باسمي متبوعاً بكلمات الغزل.

ما أن خرجنا خارج المدينة حتّى قال اليخاندرو لخوسيه: "كم أغبطك يا خوسيه على تلك الغادة الحسناء، و إن كنتُ أرثي لكما، فأمي و روزاليندا لن تتركاكما تتزوّجان، لقد استعانت بإلينورا الغجرية المشعوذة لقتل صوفيا".

ردّ خوسيه بأسىً: "أنا أحبّ أمّي كثيراً، و لكنّي لن أقبل بأن تحرمني من صوفيا لتقتلي إذن قبلها".

قاطعهما إيف بتوتّر: "هل يمكنكما إرجاء الحديث حتّى نصل؟، فصوفيا غافية بين ذراعي مارجريتا".

هزا رأسيهما بالإيجاب، ثمّ أشار اليخاندرو إلى العربة لتنهب الأرض لتصل إلى قصر حاكم اشبلية ألبرتوا دي سوزا عمّي لنحتمي به.

10

ما أن شارفنا على أبواب القصر حتّى هرع إلينا الحرس، و الوصيفات. و كان في استقبالنا بنات عمّي الثلاث نيفادا، و كاترينا، و إلينا. بعد ساعة من وصولنا كنا أكلنا، و عرفن كلّ شيء. قالت كاترينا بضيق: "حتّى تتعلّمي يا صوفيا أنّ رحيلك متخفّيةً، و بدون حرّاس كفيل بإهلاكك أنتِ، و من معكِ".

نظرتْ لها نيفادا بعتاب، في حين قالت إلينا، و عيناها تتألّقان بوحشيّة: "لو كنتُ معكِ ما كان جرؤ أحد على الأقتراب منك".

كان لنبرة إلينا، و عينيها أثر خاصّ على إليخاندرو، فقد بدا هائماً في حبّها كالسكران حتّى الثمالة ممّا أثار ضيقَ إلينا، و قبل أن تنفجر تحدّثت نيفادا بهدوء، و على ثغرها بسمة حانية: "أرى الإجهاد قد تملّك منكم جميعاً، هيّا إلى مخادعكم للراحة "، ثمّ أشارت إلى ايف، و قالت له: "هل يمكنك مرافقة إليخاندرو، و خوسيه إلى جناح الضيوف المجاور لجناحك؟".

هزّ ايف رأسه بقوّة، و تقدّم الجميعَ. سار خوسيه بضع خطوات حتّى وصل إلى فركع، و قبّل يدي، و قال: "سامحيني يا صوفيا، لم أشأْ إيذائك، أنا أعشقك يا فاتنتي".

قاطعْتُهُ بإشارة من أصبعي على فمه، و قلت: "خوسيه هل نسيت أن عرسنا الليلة؟".

ضحكنا بسعادة، قاطعتنا كاترينا قائلة: "لنجعله بعد غد حتّى يتسنّى لنا تحضير كلّ شيء، هذا عرس ابنة أخ الحاكم، و لا يجوز أن يتمّ في سفره، و هو عائد الليلة".

نظر لها خوسيه بعتاب، و قال: "معك حقّ، و لكنّك تحرميني من عروسي ليومين".

ضحكنا جميعاً، ثمّ أنطلقنا إلى مخادعنا. كان إليخاندرو يحدث إيف و خوسيه عن إلينا، و قال بلهجة حالمة: "عسى تقبل بي زوجاً، و يكون بعد غد عرسين".

ضحك خوسيه من أحلام إليخاندرو، في حين نظر إيف له بإشفاق فهو لا يعرف إلينا حقّ المعرفة مثله.

ما دخل خمستنا جناح نيفادا حتّى أشارت كاترينا لماريا بالانصراف، فأطاعتها بسرعة، و بإشارة أخرى من يدها

أغلقت الباب بالمتاريس. كانت غاضبة بشدّة ألقيتُ جسدي المنهك على أقرب مقعد، جلست على يده نيفادا، و أراحت رأسي على صدرها، و أخذت تمسح على شعري بحنان، في حين جلست بجانبي إلينا، و هي تتميّز غيظاً. نظرت إلى كاترينا، و صرخت قائلة: "ماذا تظنّين نفسك فاعلة يا صوفيا؟، هل هذه هي الرحلة التي اخترتها إلى أرض الفانين؟، بئس الرحلات هي، محاولة قتل فاشلة، و التورّط في قصة حبّ عنيفة مع أحد الفانين، و تريدين الزواج منه، هل تعين ذلك؟ سيقتلك أبي الكونت، و ماذا عن لوسيفير؟، هل تظنّين يترك أخته الأثيرة إلى قلبه لتتزوّج فاني حقير، إنّها ليست مزحة صوفيا، لقد أشعلتي الأرض من حولك، هل تعين ذلك؟".

نظرت لها نيفادا معاتبة، و قبل أن تتحدّث قالت لها إلينا: "اهدئي كاترينا، إنّها صوفيا الجحيم المدللة".

لم تهدأ كاترينا، و واصلت الصراخ: "صوفيا أجيبني، هل هذا ما تركتِنا لأجله؟".

رفعتُ رأسي، و نظرتُ إليها بإرهاق، و قلت لها بصوت متعب، و لكن كان كفيلاً بامتصاص غضبها: "أرى أنّك غاضبة يا كاترينا".

هزّت رأسها نافية، فقمت من مكاني، و أنا أقول: "إنّكِ غاضبةً بشدّة لتلك الإجازة السيّئة، فقد لحقتِ بي آملةً في إجازة مرحة، و لكن و يا للخيبة وجدتني في وسط صراع مميت".

وقفتْ أمامي، و قالت: "و لكن انظري إلى ما تورّطنا به، هذا الإليخاندرو يعشق إلينا".

رفعت يدي إلى الباب ليفتح، و قلت، و أنا أسير مترنّحة: "كفي، أنا الآن متعبة، سأستريح قليلاً في جناحي "ثم التفت إلى إلينا، و قلت: "لا داعي للقلق من إليخاندرو، تجاهليه فقط".

كانت كاترينا غاضبة لانصرافي، و لكنّها صمتت على مضض، و أنا أتّجه إلى جناحي.

دخلت جناحي، و أنا متجهّمة. لقد حدث ما أخشاه حتّى شقيقاتي ملكات الجحيم يريدون إبعادي عن خوسيه، أعلم

أنّه الجنون أن أتزوّج من أحد الفانين، و لكنّي أعشقه، لقد قرّرتُ، و انتهى الأمر سأتزوجه، و أهرب معه، لن أعود إلى أرض الجحيم.

في تلك الأثناء سأل خوسيه إيف عن جناحي، و ما أن اتّخذت قراري حتّى و جدتُ خوسيه يدخل إلى مخدعي من الشرفة، و كان يناديني بخفوت، فركضتُ إليه باكية، و قلت له: "خوسيه خذني من هنا، هيّا لنتزوّج، و نحيا بعيداً. لا أريد سواك".

قبّل يدي، و قال: "أوه أيّتها الفاتنة، لقد جئتُكِ لأطلبَ منك ذلك، هيّا بنا".

ساعدني خوسيه في النزول من الشرفة إلى الحديقة بعد أن ارتديتُ خماري، و ركضنا في اتّجاه أقرب كنيسة، فأيقظنا الكاهن، و أمرناه بتزويجنا حالاً. تعجّب الكاهن، و لكن أمام نظرة خوسيه زوّجنا، و أصبحنا معاً أخيراً، قال خوسيه، و هو ينظر إلى عينيَّ بحبّ جارف: "ها أنا ذا أفي بوعدي يا فاتنتي لقد أصبحتِ زوجتي".

و قبل أن أجيبه اقتحم الكنيسةَ بنات عمّي بالحرّاس، و إيف، و إليخاندروا، فأمسكتُ بيد خوسيه، و ركضنا إلى داخل غرفة الاعتراف. ثمّ نظرتُ إليهِ بقوّة، و قلتُ: "خوسيه زوجي الحبيب، سنرحل من هنا إلى زمان و مكان مختلف، ما رأيك؟".

أجابني بقوّة: "إلى أيّ مكان يا زوجتي الفاتنة أنا معك، هيّا بنا".

قلتُ له: "أعطني عقدي الذي ألتقطّه في الحلبة".

فأخرجه من جيبه، و أعطانيه، قلت له أمسك بيدي الممسكة به، ففعل، فالتقتْ أعيننا بعزم، و تصميم، و حبّ، ثمّ انطلقنا في دوّامة من الألوان المبهرة، و آخر ما سمعناه، اقتحام الجميع الغرفة.

نكهة أمريكية

1

بسراويل من الجينز، و قمصان خشنة متعدّدة الألوان، و جدتُ أنا و خوسيه نفسينا، كان يرتدي قبّعة عريضة، أمّا أنا فكان شعري مربوطاً بقطعة من المطّاط. كان تجسّدنا سهلاً، و كنّا على نفس الوضع قبل الانتقال، فَيَدُهُ على يدي، و عيني بعينه. أخذ خوسيه يجول بنظره في المكان، و قال "حتماً هذا نُزُل، و لكن في أيّ مكان، و أيّ زمن؟".

أجبتُهُ ببساطة: "في ولاية أريزونا الإمريكية، في القرن الحادي والعشرين الميلادي".

نظر إليَّ مبهوراً و سأل بعجب: "و كيف عرفتي؟".

أجبتُهُ بسرعة: "من القلادة. إنّها قلادة والدتي، و يسعى جميع الغجر للحصول عليها لذلك هاجمتنا إليناورا".

هزّ رأسه بفهم، و أنا ألعن كذبي، هذه مجرّد قلادة للزينة. لا يجب أن يعرف خوسيه من أكون، و ما هي قدراتي، أخشى فقده فهو زوجي، و حبيبي الذي تركتُ لأجله أرض الجحيم، و اخترت النفيَ لأرض الفانين.

قاطع خوسيه أسترسالي في أفكاري، و هو يسأل: "صوفيا حبيبتي، من نحن الآن؟".

ابتسمتُ له مجيبة: "الزوجان خوسيه و صوفيا بندارس من المكسيك، جئنا للسياحة".

سألني مرّة أخرى: "و ماذا سنفعل الآن؟".

ضحكتُ، و قلتُ: "بالطبع سنذهب للتنزّه، و مشاهدة أريزونا".

بادلني الضحك، و أمسك بيدي قائلاً: "هيّا بنا يا حبيبتي".

2

كان اختفائي، أنا وخوسيه، من أمامهم كالصاعقة، لم تحتمل كاترينا ذلك، فصرختْ بالجميع: "أين ذهبا؟، يجب الإمساك بهما؟، أئتوني بذلك القس".

أمسك الحارس بالكاهن من تلابيبه، و لفحه على ظهره، ثمّ ألقاه تحت قدمي كاترينا، التي أظهرت الازدراء له، و قالت ببشاعة: "هل تزوّجا أيّها القسّ؟".

كان الرعب قد تملّكه فأجابها بخفوت، و كلّ جسده ينتفض "أجل".

كانت هذه آخر كلماته في هذا العالم، فقد انفجر فيه غضب كاترينا، فمات من فوره. حاولت نيفادا و إلينا تهدئتها، و لكن دون جدوى. كانت تتصرّف بشراسة حتّى أنّها أحرقت البلدة بما فيها، و لم ينجُ سوى إليخاندرو الذي استعان بقدراته السحرية ليعود إلى والدته، و سكّان الجحيم الذين عادوا بكاترينا مغلغلة القوى حتّى لا تتسبّب في كارثة أكبر.

ما أن حطوا الرحال في أرض الجحيم حتّى انحلّ عقال كاترينا، و ذهبت إلى والدي الكونت كالأعصار لو رأيتها لعرفت أنّها من أعطت إعصار كاترينا أسمه. لقد أثارت بغضبها الدمار في أرض الجحيم، و الهلاك لأرض الفانين.

ما أن اقتحمت كاترينا جناح أبي حتّى ثار في وجهها سائلا: "ماذا دهاكِ يا كاترينا؟، هذه أوّل مرّة تقتحمي فيها مخدعي بهذا الصَّلَف، ماذا حدث؟".

ردّت كاترينا بنبرة معتذرة: "أعتذر أبي، و لكنّها صوفيا مَنْ أثارت غضبي، و جنوني".

سألها بريبة: "ماذا حدث لصوفيا؟".

صرخت مجيبة: "تزوّجت أحد الفانين".

جاء دور أبي ليصرخ: "هل جننتِ؟، صوفيا لا تجرؤ على ذلك. إنّها تعرف القانون جيّداً، إنّنا نلهو بالفانين، و نعذبهم، و نقتلهم، لا نحبّهم، و لا نتزوّجهم. القانون يحكم على من تعشق أحد الفانين بالنفي، فكيف إن تزوّجته؟".

صرخت كاترينا "تقتل يا أبي".

أشار لها أبي أن تصمت، و قال: "صَهْ، اخفضي صوتك لا يمكنني أن أقبل بقتل ابنتي، أو نفيها. هل عرف أحد في أرض الجحيم بما حدث؟".

ردّت بصوت خفيض ساخط: "فقط أنا، و إيف، و نيفادا، و إلينا، و ماريا".

ردّ أبي: "ستعملون على قتل الفاني، و إعادة صوفيا إليَّ، و ليكن ذلك سراً، و لا تخبري لوسيفر، فقد يفقد عقله، و يبطش بالفاني، و يؤذي صوفيا".

كادت تجنّ، و هي تجيب: "أبي أن لوسيفير يدلّلها أكثر منك فهي أخته الأثيرة لديه، هل تظنّ سترضي صوفيا بقتله؟".

أجابها: "أعيدوها عنوة، و لكن لا تؤذوها، هل فهمتِ؟".

هزّت كاترينا رأسها مجيبة، و انطلقت لتنفّذ أمر أبي.

استدعتْ كاترينا كلّاً من إيف، و ماريا، و نيفادا، و إلينا، و ابتدرتهم قائلة: "لقد أصدر أبي قراره بقتل الفاني، و إعادة صوفيا دون إيذائها، و هذه مهمّتنا نحن فقط، و يجب

ألاّ يعرف أحد في أرض الجحيم عن أمر زواجها شيئاً حتّى لا يطبق عليها القانون، فتقتل".

سأل إيف بتوتّر: "و كيف ذلك؟".

سألت كاترينا بحدّة: "ماذا تقصد؟".

انتفض إيف من حدّتها، و أجاب: "أنت أكثرنا علماً بصوفيا، إنّها ما إن أرادت الأختباء لا يمكنك الوصول إليها".

صمتت كاترينا، في حين وقفت ماريا، و قالت بحزم: "أنا منسحبة، لا يمكنني إيذاء صوفيا ربيبتي، يا لَقسوة قلوبكم، كم كانت سعيدة مع خوسيه".

نظرتْ لها كاترينا بضيق مستنكرة، و قالت: "هل تردّين أمر الكونت؟".

ردّت ماريا بحزم: "أجل، و مستعدّة لتحمّل كافة العواقب".ثمّ خرجت.

نظرت كاترينا بحزم، و قالت للباقين: "و أنتم، من يريد أن يرحل مع ماريا، و يردّ أمر أبي؟".

ارتجف إيف، و لكن لم يتحرّك أحد. نظرت لهم بانتصار، و قالت: "دعونا نتدارس كيفية الوصول إلى مكان صوفيا".

أمّا ماريا فهي أنطلقت إلى أختي كاترين تستنجد بها عسى تستطيع إنقاذي و خوسيه.

3

أمسك خوسيه بقبعة عريضة كانت على الطاولة، و ألبسني إيّاها، و قال مبتسماً: "حسناً سيّدة بندارس، لقد أصبحتِ جاهزة لبدء الرحلة، هيّا بنا".

نزلنا السلّم ركضاً، و نحن نضحك. كم أعشق ضحكة عينيه تدفئني، و صدّي ضحكته يملأني سعادة؟، لا أدري كيف كنت أعيش قبله؟. خوسيه يا سيّد قلبي المتمرّد لتكن سعادتك غايتي، و حمايتك هدفي، لتكنْ أنت نبع الحياة، و رونقها الذهبي. التفت إلى خوسيه، و رفع القبعة ليري عيني، و قال: "أوه يا صوفيا الفاتنة إلى إين ذهبتِ؟".

ضحكتَ بخجل، و أجبتَهُ: "في ضحكتك خوسيه".

قاطَعَنا مدير النُّزُل، و قال: "صباح الخير سيّد، و سيّدة بندارس. أرجو أن تكون الغرفة راقت لكما؟".

أجابه خوسيه منزعجاً: "أجل" ثمّ زفر بقوة، و أردف: "سننطلق أنا، و السيّدة بندارس في جولة بالمدينة، هل عندك دليل سياحي؟".

ناوله مدير النُّزُل الدليل الصغير، و هو صامت، فأخذه خوسيه شاكراً، و انطلقنا. همهم مدير النُّزُل بكلمات يحقد فيها على خوسيه لأنّه تزوّج بفاتنة مثلي، و لحظه العاثر سمعه خوسيه. أمسكه خوسيه من تلابيبه، و أداره في الهواء، ثمّ أسقطه أرضاً، و وضع قدمه على رقبته، و قال، والغضب يتطاير من عينيه يكاد يحرق المكان: "يمكنني قتلك بسهولة، و لكني لن ألوّث يدي بدمائك القذرة. إيّاك و النظر إلى زوجتي. هل تفهم أيّها الحقير؟".

كان صوت خوسيه عاليا، ممّا حدا بزوجة المدير إلى الركض لتستطلع الأمر. نظرت إلى خوسيه معتذرةً قائلةً: "لتتقبّل أسفي سينيور بندارس، سينيوريتا بندارس، لن تريا زوجي مرّة أخرى طوال فترة إقامتكما هنا، تقبّلوا أسفي، إجازة سعيدة".

هزّ خوسيه رأسه بضيق، و أمسك يدي بقوّة كاد يحطّم عظامها، فهمست متألمة: "خوسيه".

فنظر إلى عيني بقوّة، و قال: "أفتقد خمارك بقوّة صوفيا "، ثمّ رفع يدي لشفتيه ليقبّلها، و قال: "أوه صوفيا تقبّلي اعتذاري".

نظرت له بحنان قائلة: "لا تعتذر حبيبي، هيّا بنا".

و انطلقنا إلى حيث مغامرتنا غير المتوقّعة.

4

انفضَّ اجتماع إخوتي إيف، و نيفادا، و كاترينا، و إلينا دون أن يسفر عن شيء. جلس إيف في جناحه دون حراك متظاهراً بالنوم. و لكنّه كان يسترجع ذكرياتي معه، و كيف أنّ خوسيه غيرني، كيف تحوّلت من مدلّلة تفعل ما تريد إلى عاشقة زوجة مهتمّة ترضى بالموت لأجل من تحبّ، تذكّر نظراتي لخوسيه و حبّه لي، تذكّر و تذكّر و في داخله نار كيف يترك كاترينا تقتل خوسيه، إن تركها تقتله قتلتني معه، و لحاربتها لأجله، تمتم: "خوسيه لقد أحببتُ رفقتك، و عشقك لصوفيا. صوفيا أختي الحبيبة سأموت دونك لن أسمح لهم بإذائك".

طرقت بابه كاترين، و ماريا، ففتح لهم. ما أن دخلت كاترين حتّى غلقت الأبواب، و أقامت حجاب طاقة يمنع التجسس، و يحبس الأصوات بداخله بطرف أناملها بسرعة. نظر إيف مستفهماً، فبادرته ماريا قائلة: "إيف يجب أن ننقذ صوفيا و خوسيه".

..*.*.*

كان خوسيه يطالع الطريق بملل قاتل، حتّى أنا تسرّب إليّ الملل. توقّف بغتةً، و قال لي: "يبدو أنّ تلك القلادة غبيّة جداً".

نظرتُ له باستفهام، فأجابني: "صوفيا حبيبتي أنّنا نسير في صحراء، إذا نظرتي إلى الدليل الذي أعطانيه مدير النُزُل الغليظ ستجدي كلّ ما به أماكن قسم الشرطة، و محلّ البقالة، و مكتب البريد، و المشفى، و نحوه".

نظرتُ له بحنان قائلةً: "هل تفتقد اسبانيا لهذه الدرجة؟".

أخذ نَفَساً عميقاً بطيئاً، و أخرجه بسرعة و قال: "أجل، أفتقد الجبال، و المروج، و حلبة الثيران " ثمّ غمز بعينه، و أكمل "و الحسناوات اللاتي".

و قبل أن يكمل ضربته على كتفه بقبضتي، و أنا أقول مغتاظة: "الحسناوات يا خوسيه، سأقتلك".

أمسك بيدي، و قبّلها، و هو يقول: "أوه منك يا فاتنتي، هل تغارين؟، لا يوجد بالقلب سواك يا صوفيا. أعشقك".

تبخّر غضبي كأنّي لم أغضب قطُّ، و اعترى وجهي حُمرة الخجل، ثمّ هبّت رياح أطارت قبعتي، فركض خوسيه لإحضارها. و هنا دوّى صوت يشقّ الهواء بسرعة، ثمّ استقرّ في هدفه بمنتهي الدقّة.

5

كان يراقبنا من خلف التبّة رجلين، و كلّ منهم محمّل ببندقية صيد، ما أن ركض خوسيه ليحضر قبعتي حتّى ركض أحدهما. و أطلق بندقيّته على خوسيه فأصابته، و الآخر أطلق بندقيّته عليَّ فأصابتني. كانت البنادق بها مادّة مخدرة قويّة، ما أن سرى مفعولها حتّى اختطفني الرجلان، و تركا خوسيه ملقىً على قارعة الطريق تحت أشعّة الشمس الساطعة.

أخذت أتململ، و أنا أعود إلى وعيي، لأجدني في قبو قذر مليء بالجرذان، و خيوط العناكب على اختلاف أنواعها، و كانت الأتربة والرمال، قد قرّرت من قرن أن تسكن به. حاولت أن أحرّك يدي، فإذا بي مقيّدة الأطراف بمقعد خشبي عتيق، و لكنّه متين. هززت يدي فإذا بصوت مألوف يقول لي: "لا تحاولي يا فاتنة".

رفعتُ رأسي إليه، فإذا به صاحب النُّزُل، و معه رجلان مسلّحان، و بجوار قدمه زوجته مقتولة منذ فترة حتّى أن دماءها مع الأتربة كوّنت طبقةً طينيةً لزجةً، انتابني الفزع، و أخذتُ أصرخ بهستريا: "خوسيه. . خوسيه".

و أخذ ثلاثتهم يضحكون.

..*.*.*

توسّطت الشمسُ كبدَ السماء، و تسلّطت على خوسيه الملقي في وسط الطريق. كادت تحرقه، شعر بقوّة الشمس على جلده، فأخذ يستعيد وعيه ببطء. نادى عليَّ فلم يجد ردّاً فهبّ جالساً، و تلفّتَ باحثاً عنّي، فلم يَرَني، فقفز، و أخذ يركض بحثاً عنّي، فوجد قلادتي ملقاةً بإهمال. أمسك بها، فشعر بلهيبها يحرق أصابعه. جرى على أقرب بناء ليستنجد بأيّ شخص أو يسأله عنّي، فكان مركز الشرطة، و الذي كان فيه مكتب واحد يجلس عليه المأمور، الذي كان يشبه الخنزير البرّيّ بعدم نظافته، و برودة، و جهله. توّجه له خوسيه محاولاً الأستعانة به في البحث عنّي، فوجد الغباء مرتسماً على ملامحه، و اللا مبالاة تتحدّث من فمه. جنَّ جنون خوسيه، و تركه لغبائه يتأمّل أسنانه، و دماؤه بين يديه الخشنة.

أخذ خوسيه يطوف في أنحاء البلدة حتّى انتصف الليل دون جدوى، فعاد إلى النزل خائباً على أمل أن يجدني، ما أن دخل النُّزُل حتّى وجده خالياً، فأخذ يتجوّل به بحثاً عن أيّ

شخص، و قبل أن يصل إلى القبو سمع صرخاتي الملتاعة عليه، و صاحب النُّزُل يصفعني صارخاً: "كفّي لن يجدك هذا المأفون، فلتلتزمي الهدوء، لقد مللتُ صراخكِ الذي لم يتوقّف منذ استعادتك لوعيك".

ركض خوسيه مقتحماً القبو، ليجد أحدهم ممسكاً بشعري يكاد يمزّقه، و الآخر يصفعني، و الثالث ممسكاً بسكّين مقرّباً إياها من عنقي. طار خوسيه على صاحب السكّين فأسقطه أرضاً، و أمسك بالسكين، و قتله بها، ثمّ التفت لذاك الغبيّ الممسك بشعري، فأوغل السكين في قلبه، ثمّ استدار للذي صفعني، فإذا به مدير النُّزُل، أمسك به خوسيه، و قيّده بمقعد آخر، ثمّ فكّ وثاقي، و اطمئن عليَّ، ثمّ عاد له، و قد نزع السكين من جثّة سابقه، و أخذ يرسم بها على وجهه، و أنحاء جسده، و هو يصرخ و خوسيه لا يبالي، ثمّ قام بتكميمه، و ركل الكرسيَّ ليسقط على ظهره، و قال له: "سأتركك تموت ببطء، جزاءاً لك لما فعلته بصوفيا".

ثمّ التفت إليَّ، و قال: "صوفيا هل أنتِ بخير؟"، فهززتُ برأسي أي نعم، فأكمل: "هيّا بنا من هذا المكان الحقير ".

6

أخذتُ أسير متعكّزة على ذراع خوسيه، و الذي كان ينظر إليَّ بحنان كلَّ خطوتين، و يسألني: "هل ما زلت متألّمة؟"، فأجيبه نافيةً.

ظللنا هكذا حتّى مرّت بجوارنا سيّارة دفع رباعيّ، عادت إلى الوراء بعد أن تجاوزتنا، و برزت من نافذتها فتاة شرقيّة الملامح سمراء ترتدي الحجاب. و سألتنا عن وجهتنا، أجابها خوسيه إلى أيّي فندق، نظرت لنا، و رأت ما بي من كدمات، و سحاجات، فنزلت من السيّارة، و فتحت لنا الباب، و دعتنا للركوب. جلستُ و خوسيه إلى جانبي، و اعتذرنا لعدم قدرتي على الجلوس بحانبها، ضحكتْ بطيبة، و قالت: "لا عليك، يبدو أنّكما مكسيكيان، أنا مصريّة أُدعى وصال، و أبي يعمل هنا في صناعة الزجاج، أمّا أنا فأدرس بالجامعة، و أنتما؟".

حكى لها خوسيه ما حدث لنا من صاحب النُّزُل، فعرضت علينا المبيت في منزلها، حاولنا الاعتراض، فرفضتْ، و قالت: "لا يمكنني تركككما، كما أنّه لا يوجد نُزُلٌ غيره في

البلدة". فوافقنا خجلين، و كانت هذه هي بداية صداقتنا و وصال.

ما أن وصلنا إلى منزل وصال حتّى وجدنا والدة وصال في الباب، كانت تشبه وصال في كلّ شيء حتّى تظنّها وصال بعد عشرين عاماً. كانت والدتها نبعاً من الطيبة و الحنان، فأدخلتني إلى غرفة واسعة، و دسّتني في فراشها الوثير، و أحضرت لي الطعام، و أصرّت أن تطعمني بيديها. أمّا خوسيه، و وصال فقد جلسا مع والدها الأمريكي آدم، و الذي رحّب بخوسيه، و استمع بصبر لحكايتنا.

بعد أن أنتهى خوسيه. قال له أبوها بحكمة: "يجب أن تتركا الولاية كلها، و في أقرب وقت".

ثمّ التفتَ إلى وصال، و سألها:" متى تسافرين إلى الجامعة؟"

أجابته: "بعد غد".

فقال لها بلهجة قاطعة: "بل غداً، و ستصطحبين معك خوسيه، و صوفيا".

سأل خوسيه: "و أين تلك الجامعة؟".

ردّتْ: "في بوسطن، سنرحل بالطائرة سأحجز الآن بالهاتف".

ما أن حجزت حتّى جلس ثلاثتهم ليرتّبوا كلّ شيء لنا هناك، و أخذ والدها يجري اتّصالاته لتأمين إقامة لنا، و عمل لخوسيه، حتّى نستقرّ هناك. أمّا أنا فقد نمتُ بين ذراعَيْ أمّ وصال، و التي لم تتحرّك حتّى استيقظت صباحاً بمفردي. شعرتُ بالخجل، و لكنّها قبّلتني، و دعتني بأبنتها، و شعرتُ أنّها والدتي فعلاً.

تمّ كلّ شيء بسلاسة حتّى أنّها لا تستحق الذكر. و لكن مَنْ قال إنّ المغامرات لن تلحق بنا، و أننا سنحيا في سلام، فلم نكد نستقرّ في بيت وصال حتّى أتتنا المغامرة على جناح السرعة.

7

ما أن دخلنا من باب منزل وصال، و خوسيه يحمل الحقائب، حتّى دوّى إطلاق نار من الشقّة المقابلة لنا. ركضت وصال، و أنا إلى أقصي غرف الشقّة، و بعدنا خوسيه. فجأة وجدنا باب الشقة يفتح، و يدخل عدد من الرجال المسلّحين. كانوا يمطرون هواء المنزل بالرصاص، لقد أتلفوا حوائط المنزل بفتحات كبيرة متقاربة. أمّا نحن فقد اختبأنا تحت الأسرّة، و نحن نحبس أنفاسنا. ظللنا مختبئين لربع ساعة كاملة لا نستطيع فعلَ شيء. أخذ فيها الرجال يمشطون المنزل، و يطلقون النار بسخاء على أيّ ذبابة طائرة، و قبل أن يصلوا إلى مخبئنا دوّت أبواق الشرطة معلنةً قدومهم، فهرب المسلحون في لمح البصر.

بعد رحيلهم سمعنا أصوات رجال الشرطة المحلية يصلون إلينا، و يُخرِجونا من مخبئنا، و أنهوا أوراقهم بسرعة راحلين دون تفتيش أو معاينة أو أيّ شيء، و نصحونا بالانتقال إلى مسكن آخر.

جنّ خوسيه من غباء الشرطة المحلية، ثمّ أخذ يفتّش، و يفحص كلَّ شبر في البناية بأكملها، و احتفظ بكلّ ما وجده، و

أخبر وصال أن تجد لنا نُزُلاً قريباً، أو فندقاً كبيراً حتّى الصباح، ثمّ البحث عن منزل آخر يأوينا.

كان خوسيه يتمتم: "متى رحلنا لحقتنا المتاعب".

انتقلنا إلى فندق متوسّط لليلة واحدة. كانت وصال ترتجف بين ذراعيَّ، و خوسيه يحدّث أبيها بما جرى طالباً منه المساعدة في توفير مسكن بديل. ظللنا على تلك الحالة حتّى الصباح، و وصال متكوّرة بين ذراعيَّ، بينما خوسيه بجري الاتّصالات حتّى يؤمّن لنا منزلاً مناسباً، و العمل بوظيفة تدرّ علينا دخلاً نقتاتُ منه.

دقّت الساعة تمام العاشرة في منزلنا الجديد الكائن خلف الجامعة، و القريب من محلّ البقالة الذي يعمل به خوسيه، كنتُ أرتّب أغراضنا جميعاً في أماكننا، أمّا خوسيه فقد ذهب لإحضار الطعام، و وصال تتّصل بزملائها لتعتذر عن الحضور.

كان يوماً هادئاً، فقد عاد خوسيه في الثامنة مساءً ليجد عشاءه جاهزاً، و أنا و وصال في انتظاره. تناولنا العشاء في صمت، طلبَ بعده خوسيه كأساً من الشاي، و جلس في

منتصف غرفة المعيشة يفرز ما حصل عليه في البناية القديمة، و هو يتمتم بصوت خفيض لا يُسمع. في حين جلسنا أنا، و وصال بجانبه. طلب خوسيه منها أن تعلمه كيفيّة البحث على الحاسوب. نظرتْ له متعجّبة فأبى أن يريحني بكلمة، و قضى الليل في البحث، و التحرّي دون كلل.

كنتُ غضبى من خوسيه حتّى أن تركته، و أغلقت باب غرفتي بالمفتاح. لم ينتبه خوسيه لغيابي، فقد كان مستغرقاً في بحثه، أمّا وصال فقد كانت نائمة بغرفتها. تملك الإرهاق من خوسيه في السابعة صباحاً، فأخذ يتمطّى، و ينادي عليَّ، أمّا أنا فتظاهرتُ بالنوم. تنبّه لأنّي لا أجيبه، أخذ يبحث عنّي، ثم طرق باب الحجرة، و أنا لا أجيبه.

قال بصوت غاضب خفيض: "أفتحي الباب صوفيا، ستستيقظ وصال. لِمَ أغلقتِ الباب؟".

قفزت إلى خلف الباب، و أنا أجيبه: "لن أفتح يا خوسيه. فلتكمل ما كنت تفعله".

ردّ بغضب: "افتحي، و إلاّ كسرتُهُ عنوةً. صوفيا ما بك؟".

أجبتُهُ بغضب مماثل: "ألا ترى أنّي غضبى لإهمالك لي؟، أم أنّ ما تفعله أعمى قلبك عني؟".

صرخ، و كسر الباب، و أمسك بيدي، و قال بصوت هادر: "أعشق مجنونة أنا، لقد تزوّجت بمن ستوردني موارد الجنون، أنّي أبحث عمّن هاجمنا حتّى أحميكِ يا مجنونة".

حاولتُ مراوغته، و سحب يدي دون جدوى كانت عيناه كالجمر، و يدي تؤلمني، فتأوّهت بصوت عالٍ، فترك يدي بعنف، و غضب. بادلتُهُ نظراتِهِ بغضب، على صرخاتنا دخلت وصال، و هي فزعة، فتركنا خوسيه، و ذهب لعمله دون كلمة واحدة.

"أنا غبيّة أم مجنونة؟، كيف أغضبت خوسيه؟، أكاد أجنّ مما حدث".

كنت أتحدّث كالمحمومة، و وصال تحاول تهدئتي دون جدوى، نظرت إليها، و أكملت: "ترك خوسيه كلَّ شيء لأجلي، و أنا كذلك، أحبّه يا وصال. كيف أمكنني أغضباه؟".

ردّت وصال: "لأنّكِ غيري يا حبيبتي".

أخذتُ أبكي للحظة، ثمّ قمت بأكثر من تصرّف متهوّر، فقد أبدلتُ ملابسي لأذهب إليه، و أنا لا أعرف محلّ عمله. ركضتْ خلفي وصال، و قبل وصولي إلى باب حديقة المنزل وجدتُ خوسيه يُقبلُ راكضاً نحوي، و قبل يدي، و أنا أبكي. انضمّت لنا وصال، و قالت لنا: "كُفّا عن ذلك. يا لكما من أحمقين، هيّا إلى المنزل، فأنا أتضوّر جوعاً".

ضحكنا و سرنا معها إلى الداخل، فقامت هي بإعداد الفطور. جلسنا ثلاثتنا نتحدّث عمّا وجده خوسيه.

قال خوسيه بعد أن التهم نصف البيض: "لقد وجدتُ أنّ الرصاص الذي أمطرونا به مضادّاً للدبّابات، و ليس عاديّاً، كما أن غطاء الرأس الذي وجدته به شارة لم أستدلّ عليها حتّى الآن".

قلتُ له بعد أن ابتلعتُ ما بفمي من الخبز المحمّص: "و لكن لماذا هاجموا منزل وصال؟".

نظر خوسيه بتمعّن، ثمّ هجم على ما تبقّى من البيض المقليّ، و قال: "هذا ما سأعمل على اكتشافه، أمّا الآن فإنّي ذاهب إلى عملي".

قالت وصال: "و أنا كذلك، و لكن أَرِني ذاك الشِّعار لعلّي أعرفه".

أراها خوسيه فلم تتعرّف عليه، فقال: "كنتُ متأكّداً من ذلك "ثمّ التفتَ إليَّ و قال، و هو يغمز بعينيه: "أريد عشاءً شهيّاً، فأنا أتعب بعملي".

ضحكتُ، و قلتُ: "عن أي عمل تتحدّث؟".

ضحكنا جميعاً، ثمّ ذهبا إلى وجهتيهما، و ذهبتُ أنا إلى المطبخ.

8

عاد خوسيه مبكّراً من عمله ليجدني في المطبخ أُنهي طعام العشاء، فأقبلَ عليَّ ممازحاً يبغي مساعدتي في الانتهاء منه، و أنا أرفض ضاحكةً، فهو لا يعرف سوى عمل كوب من الشاي، و في النهاية أرتضي بإعداد المائدة للعشاء.

كان يأكل بشهيّة كبيرة، و يلقي عليَّ كلمات الثناء، و الغزل، فيخجّلني. كنتُ أتأمله، و هو غافل. أحبّه كما لم أحبِبْ أحداً من قبل، و لن أحبَّ سواه. سرقنا من الزمن دقائق نضحك، و نأكل حتّى شقَّ سكون الليل صوتٌ صارخٌ ميزته لوصال. انطلقنا راكضين حيث مصدر الصوت، كان الشارع مظلماً، و وصال تقطعه ركضاً لتسقط تحت قدمي، و من خلفها أتى رجلان كالبِغال يحملون السكاكين. تركني خوسيه أرفع وصال، و أخذها للداخل، أمّا هو فقد كسر عنقيهما بلكمتين خاطفتين، و أفل راجعاً، فإذا بشاب أسمر مرحٍ يستوقفه، ثم قال له: "هنيئاً لك فقد قتلتُ اثنين من الممثّلين بمهارة".

نظر له خوسيه مستفهماً، فأردف: "أنا مايكل جونسون مخرج سينمائي أتيت من الهوليود برفقة فريق العمل

لتصوير فلم، و لأنّ الممثلة اعتذرت الليلة، و ميزانية الفيلم لا تسمح بذلك، فقرّرنا تصوير الفيلم على أيّ فتاة مارّة، و سنخفي وجهها بالطبع".

أدار خوسيه وجهه، و عاد إلى المنزل تاركاً إيّاه وحيداً، دخل خوسيه المنزل شاردَ الذهن، وجدني أحتضن وصال المتكوّرة بين ذراعيَّ أهدهدها كهرة صغيرة ترتجف من البرد. فقال لها: "اهدئي لا تخشي شيئاً. صوفيا و وصال هناك ما أودُّ أن أخبركم به".

مسحتْ وصال دموعها، و اعتدلتْ. أمسك خوسيه للحظة، ثمّ حدّثنا بما كان من هذا المايكل، ثمّ أرجع رأسه، و هو يقول: "لم أصدّق حرفاً ممّا قاله، كما أنّ قميصه به نفس الشعار الذي وجدناه على غطاء الرأس في المنزل القديم. وصال أرى أنّهم يسعون خلفك لسبب ما حاولي أن تساعديني، و تساعدي نفسك".

قالت وصال: "أظنُّ ذلك بسبب أستاذي بالجامعة، لقد أرسل لي طرداً فيه صندوق قبل أن ألقاكم بيوم، و معه رسالة يأمرني بإيداعه خزانةً في أحد المصارف، و عندما التقيتكما كنتُ عائدة من المصرف، و اليوم عندما كنتُ في

الجامعة تجاهلني أستاذي متعمّدا، و وجدتُ رجلاً ذا شعر أبيض يهدّده في مكتبه، و كان على قميصه نفس الشعار".

وقف خوسيه، و قال: "هيّا بنا نذهب إليه".

شهقت وصال، و سألته: "الآن؟".

قبل أن يجيبها دوّى صوت سيارات الشرطة في المكان، و التي هرعت بعد اتّصال أحد جيراننا، و لكنها لم تجد أيَّ شيء، و اتّهمته بإزعاجها نتيجة سُكره. كان خوسيه يتابع ذلك، و هو يتمتم "أغبياء".

بعد انصرافهم، قال خوسيه بقوة: "يجب أن نتولى الأمر بأنفسنا، يجب".

9

لم يكن هناك بدّ من الانتظار للصباح حتّى لا نلفت الأنظار. و كالعادة، و في نفس الموعد انطلق خوسيه لعمله، و وصال إلى الجامعة، تحايلتْ وصال لمقابلة أستاذها، فوجدت مكتبه فارغاً. حاولت أن تسألَ عنه، فعلمت أنّه قُتِلَ في شقّته قبل الهجوم عليها بساعة، و قد جرى تفتيش لشقّته، و نهب كلّ الأشياء الثمينة بها. عادت وصال للبيت، و هي متوتّرة خائفة. قصّت عليَّ كلّ ما حدث، فقلتُ لها: "يجب أن نخبر خوسيه".

ثمّ اتّصلت في محلّ البقّالة الذي يعمل به، و طلبت منه أن يُحضر بعض الأغراض للمنزل. بعد ربع ساعة جاء خوسيه بالأغراض التي طلبتها، و قصصنا عليه ما حدث. أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً دون كلمة، و على حين غفلة دُقّ جرس الباب، فإذا به ساعي البريد يحمل طرداً لوصال، كان فيه مذكّرات أستاذها الراحل كاملة. أخذه خوسيه منها بلهفة، و استغرق في قراءته من فوره، و وجهه يتغيّر من عجب لاشمئزاز لدهشة لضيق لمدّة خمس ساعات كاملة.

أنهى خوسيه المذكّرات، و ألتفت إلينا مصدوماً، و بدأ يتحدّث.

حاول خوسيه أن يلخّص ما قرأه بهدوء قائلاً: "أن أستاذك يعمل على أبحاث الجُسَيمات دون الذرّيّة، و هي أحدث، و أهمّ فروع الفيزياء النوويّة، و قد أكتشف أنّ هناك أجساماً دون ذرّيّة لها سرعة أعلى من سرعة الضوء، و هذا يعني خطأ نظرية اينشتين الذي وضع بها حدّ السرعة بسرعة الضوء، و هذا يعني ثورة في علوم الفيزياء، و الفضاء، و الكونيات ككلّ".

سألته بفضول: "و هل يعني هذا قتله؟".

هزّتْ وصال رأسها و قالت: "مع الأسف أجل".

أكّد خوسيه كلامها قائلاً: "لقد انتقل الصراع من حرب بين العلماء لاكتشاف ما هو جديد، و تصدّر الجوائز إلى حرب بين الدول، فإسرائيل جنّدت بعض العصابات هنا، و أمرتهم بتصفية كلّ من له علاقة بالأمر، و هذا يعني أن...".

قبل أن يكمل اقتحم المكان مايكل مع رجاله، و هو يصفّق بيديه قائلاً: "هذا يعني نهاية المطاف، لقد وصلنا للنهاية، يبدو أنني سألهو بكم كثيراً قبل أن أقتلكم".

ثمّ أشار لرجاله لتبدأ المعركة.

10

انطلق رجال مايكل محاولين الإمساك بنا، أخذتُ أركض أنا، و وصال، و هم وراءنا، أمّا خوسيه فقد قام بركل، وَ لَكْمِ كلّ شخص تطاله يداه. كانت معركةً ضروساً، فلكمات خوسيه تعرف طريقها فتكسر رقاباً، و تكسر عظاماً. كان مايكل يشاهد كلّ شيء و هو غاضب. خرج مسرعاً، و هو يتّصل بأحدهم ليخبره بفشل العملية كلّها.

انتهى خوسيه من رجال مايكل في ربع ساعة، و قام بإلقائهم في قبو المنزل. جلست أنا، و وصال نرتجف. حاول خوسيه تهدئتنا دون جدوى. أخذ خوسيه يدي بين كفيه مهدهداً، فقلت له برجاء: "خوسيه دعنا نذهب من هنا".

قبّل باطن كفّي، و قال: "أجل سنذهب".

ثمّ التفتَ إلى وصال، و قال: "سنعود إلى منزلكِ لِنُحْضِرَ أمانة أستاذك".

نظرنا إليه بعيون شاخصة، وه و يجري الاتّصالات لنعود من فورنا إلى هناك.

كانت رحلة عودتنا هادئة لا يعكر صفوها إلاّ شعورنا بأنّنا تحت المراقبة. ما أن عدنا إلى منزل أهل وصال حتّى وجدنا والدتها تبكي قلقاً، و والدها يقفز التوتّر من عينيه. ركضتْ والدة وصال لتحتضني أنا، و ابنتها بحبّ، و قوّة لتجذبنا للداخل. رَبَتَ والدها على كتف خوسيه، ثمّ انفرد به ليقصّ عليه كلّ ما حدث لنا، و يدبرا أمرنا.

بعد ساعة انطلق كلاهما إلى حيث المصرف الذي وضعت فيه وصال الأمانة بمفتاح الخزانة. في تلك الأثناء هاجم مايكل المنزل، و أخذنا ثلاثتنا رهائن تاركاً رسالة تهديد لخوسيه بها تعليمات محدّدة يتبعها لنظلّ على قيد الحياة.

عاد خوسيه و آدم والد وصال ليصدما بتدمير المنزل، و اختفائنا، و رسالة مايكل. أخذ خوسيه ينطح الجدار بقوّة، و هو يصرخ. أمّا والد وصال، فقد هزّه البكاء فافترش الأرض، و هو يتمتم: "ما العمل؟".

..*.*.*

ما أسوأ أن تخفي قواك أمام المحطين بكَ حتّى لا يكتشفكَ أحد حقيقتك. هكذا أنا كنت أتظاهر بالألم أمام مايكل، و رجاله، و لكن ما كان يعذّبني هو صراخ وصال، و والدتها، و أقصى ما أستطعت فعله، هو تخفيف الألم عنهما. كان ساديّاً بدرجة بشعة يُغرقنا بالمياه الباردة طوال الليل، و نحن معلّقات كالشاه المعلّقة بمحل الجزارة، و بالنهار كي، و صعق، و نحوه، و كلّ ربع ساعة يلفّ شعري على يديه بقوّة و يهمس بأذني: "سأجعل خوسيه يركع أمامي لينقذك، ثمّ أقتلكما سويّاً، لا بل أنت قبله ليموت ألف مرّة".

..*.*.*

استجمع والد وصال نفسه، و أمسك بكتف خوسيه قائلاً: "ولدي هيّا بنا لنتصل بالمباحث الفيدرإلية".

صرخ خوسيه رافضاً: "فليذهب الجميع إلى الجحيم، أنا أريد زوجتي سالمة فقط".

ردّ والد وصال: "ماذا ستفعل؟".

ردّ خوسيه: "سأنفّذ أوامره حتّى أنقذها، ثمّ الويل له منّي"

ثمّ ضرب قبضته براحته، و انطلقا لينفّذا الأوامر.

11

صرخ ايف في كاترين، و ماريا: "علينا أن نجد إليخاندرو، فبتكامل الحلقة يمكننا الاتّصال بخوسيه، و منه لصوفيا".

نظرت له كاترين، و قالت: "هل تظنّ أنّ صوفيا قد أهملت تلك النقطة؟".

نظر ايف إلى اللا شيء، و هو يقول: "لست أدري، فلنحاول".

قرّر ثلاثتهم المخاطرة، و الانتقال إلى حيث إليخاندرو. الذي كان يدرس كتب السحر القديمة في محاولة للوصول إلى طريقة توصله لخوسيه. مرّ عليه أسبوع كامل. و في ليلة بلا قمر تجسّد في غرفته ايف، و ماريا، و كاترين. نظر إليهم إليخاندرو باسماً، و قال بهدوء: "كنت أنتظركم".

ضحكت كاترين، و قالت: "هكذا إذن، فلنذهب الآن".

ثمّ شبك الأربعة أيديهم بقوّة، و أخذوا يتمتموا بكلمات خاصّة لا يسمع منها سوى خوسيه، و صوفيا.

..*.*.*

التزم خوسيه بتعليمات مايكل حرفياً فيذهب هنا و هناك، و يركض هنا و هناك، و هو يجزّ على أسنانه غيظاً، و لكن اضطراب قلبه جزعاً على ما يحصل يجعله يحتمل. أوه حبيبي خوسيه كم تحمّلت لأجلي!

وصل خوسيه، و آدم بحملهما من الأوراق المطلوبة إلى آخر محطّات التعليمات في الفندق القديم الذي تجسّدنا فيه أوّل مرّة. كان في استقبالهما أحد رجال مايكل الذي اقتادهما إلى القبو حيث كُنّا نُعَذَّب، و من شدّة الألم لا نقدر حتّى على الصراخ. كان منظري بشعاً، فقد كنتُ مشعثةً، ممزّقةَ البشرة، متّسخة الملابس، مبلّلة حتّى أنّ الماء البارد المخلوط بالدم يقطر منها، و بجواري وصال، و والدتها في حالة إعياء شديدة، و الدماء تجري منهما أنهاراً، و قد أصبحتا كهيكلَيْ عظم أتى عليه فنحل.

صرخ خوسيه بقوّة، و ركض تجاهي. حاول مايكل منعه، فمزّقه خوسيه بأسنانه بضراوة حتّى أن رجال مايكل فزعوا من شراسة خوسيه. كان يعمل فيهم الركلات، و اللكمات المميتة، فتساقطوا كالذباب من حوله، ثمّ ركض إلي، فأنزلني برقّة، و قبّل يدي، و هو يتأمّلني بلوعة، و

يعتذر لي على تأخّره، و يبكي لمرأى جسدي الذي مزّقه التعذيب. في حين أنزل آدم وصال و أمّها محاولاً إسعافهما. و فجأة دوّى في المكان صوت فرقعة عالية رجّت منها أركان القبو بقوّة.

كان تجسّد إيف، و كاترين، و ماريا، و إليخاندرو مُفزعاً لدرجة أنّ وصال، و والديها قد أُغشيَ عليهم فزعاً. التفت لهم خوسيه، و سألهم: "لِمَ أنتم هنا؟، و كيف توصّلتم إلى مكاننا؟".

ركض إليخاندرو، وا حتضن خوسيه مجيباً: "بسحر الربط بين الأخوين. فأنا و أنت على رباط وثيق، كما أنّ صوفيا على رباط بأخويها، و مربّيتها".

انتفضتُ بقوّة، فركض إلى خوسيه، فأخرجتُ قلادتي ليمسك بها خوسيه، لنرحل سويّاً في دوّامة من الألوان، و إليخاندروا يصرخ منادياً، أمّا كاترين فحاولتْ أن تكلمني أو تتّصل بي دون جدوى، فقد رحلنا في ثانية.

نكهة مصرية

1

لا أدري لماذا لا أستطيع اختيار شخوصنا؟، ربّما لقوّة سحر هذا المكان الذي اخترته، لكنّه المكان الوحيد الذي آمنُ فيه على نفسي، و خوسيه من أباطرة الجحيم، و إليخاندروا كذلك. فمصر بلد القوّة السحريّة منذ القدم، فمنذ نشأتها أمتلكت نبع القوّة السحريّة، و القِوى الخفيّة في العوالم الآخري. هي الحصن و الأمان للجميع، و يجب أن أحميَ خوسيه من الجميع.

ما هذا؟ إنّ يدينا تنزلق من بعضهما قبل تجسدنا بثانية؟.

أبحثُ بأناملي عن أنامله فلا أجدها. لقد أضعتُ خوسيه نبض القلب، و مهجة الروح. ترى لماذا ترك خوسيه يدي؟، هل لقوّة الوجهة؟، أم لضعفي بعد ما مررتُ به؟، أم ماذا؟، ماذا يعني ترك خوسيه ليدي؟، هل تجسّد في مكان آخر، أم نفس المكان، أم يبعد عدّة خطوات عنّي؟، خوسيه أين أنت؟، وأين أنا كذلك؟.

لا يمكنني ترك مصر، و اختيار مكان آخر، لأنّي أضعتُ خوسيه، و إن رحلت فسيظلّ هو هنا، و بذلك أكون فقدته نهائيّاً. و لكن المشكلة أنّنا سنتّخذ شخوصاً تناسب تلك البلد شكلاً، و اسماً، فكيف يمكنني التعرّف عليه؟. أوه ماذا يحدث لي؟، أشعر بدوار عنيف يكتنفني قبل أن أتجسّد. أغيب عن الوعي، و لا أدري إلى إين....

2

لا أدري كم غبتُ عن الوعي، و لكنّي أشعر بتشويش عجيب، أسمع صوتاً يناديني قائلاً: "صفاء هيّا استيقظي ستتأخّرين على الجامعة".

وجدتُني أنهض من فراشي لأذهب إلى الحمّام. مررتُ أمام المرآة، فإذا بي فتاة حنطيّة البشرة، بنيّة العينين كشعرها، و عيونها واسعة، أميل إلى القصر ذات قوام متناسق. وقفت أتأمّلني لقد أصبحت فتاة مصريّة. بعد نصف ساعة كنتُ أنتهيتُ من ارتداء ملابسي، و حجابي، و نظّارتي، و انطلقتُ إلى حُجرة المعيشة، لأجدَ أمّي بوجهها البشوش تستقبلني، و تخبرني بأن أتناول أيّ شيء قبل ذهابي حيث أعمل دكتورة جامعيّة.

قبّلتُ رأسها، و نزلتُ من المنزل، و قد قرّرتُ ترك السيّارة، و الذهاب بالمواصلات العامّة. فركبتُ سيّارة أجرة، و أخذتُ أشاهد شوارع الإسكندريّة من خلف زجاج النافذة، و أنا أستعيد كلّ شيء.

"أنا صفاء إبراهيم، حاصلة على الدكتوراة في علم النفس جامعة الأسكندرية، و التي أعمل فيها كمعيدة. تجاوزتُ الخامسة والعشرين، و أعيش مع أمّي، كما لي أخت أصغر تُدعى بسمة، و هي متزوّجة منذ سنتين. انحصرت حياتي في دراستي، فأصبحتُ أصغرَ من حصلتْ على الدكتوراة في مصر. لقّبوني بالمرأة الحديديّة، لأنّي لا أسمح لأحد بالاقتراب من قلبي حتّى ظننته كالجميع ميت. أُعْمِلُ عقلي في كلّ شيء، و لا أترك لقلبي القرار، و لكن هذا لا يعني قلّة علاقاتي، بل على العكس، فأنا اجتماعية جدّاً، و لي الألاف من المعارف و الأصدقاء.

لا أدري لماذا أشعر بأني مراقبة، هناك من ينظر إليّ. رفعتُ عيني فإذا بها تصدم بعينين سوداوين خجلتين لشابّ ذي بشرة لوّحتها الشمس. كان ذا ملامح مصريّة خالصة. مصفّفاً شعره بطريقة كلاسيكية، و يرتدي قميصا أسودَ تبرز منه عضلاته، و بنطالاً من الجينز. لا أدري لِمَ لَمْ أستطع حتّى زجره بنظرة كما العادة، و لكنّي وجدت نظراته الخَجِلة تخترق قلبي، فأشحتُ نظري بسرعة، و ألهيت نفسي بمشاهدة معالم الطريق، حتّى لاحت لي الجامعة، فغادرتُ

مقعدي و هو خلفي. تملّكني اضطراب عجيب غير أنّه استدار ليدخل مكتبة الأسكندرية، و أنا أكمل طريقي للجامعة.

ما أن خطوت بداخل الجامعة حتّى نسيتُ كلّ ما حدث. انتهى يومي المرهَق بعد خمس ساعات لتجمعني المصادفة بنفس الشاب في ذات المقعد المقابل لمقعدي. كان يحمل بيده بعض الخرائط الهندسيّة والملاحيّة. كان صموتاً خجولاً، و لكنّه ذو شخصية آسرة لامست روحي. تملّكني الخجل، فأخرجتُ هاتفي، و أخذتُ أعبثُ به حتّى وجدتُهُ يترك السيّارة قبل منزلي بخمس محطات. و وجدتُني أشيّعه ببصري، فتلاقت أعيننا بخجل، و ارتسمت على شفتينا بسمات خجلى مرتبكة.

ظلّ طيفه يطاردني حتّى وصلتُ المنزل، لأجد شقيقتي و زوجها ينتظراني حاملين لي مفاجأة خاصّة، أنستني كلّ شيء.

3

ما أن درتُ مفتاحي بباب الشقّة حتّى وجدت أختي بسمة تقفز لتحتضنني، و هي تقول: "صفاء ستصبحين خالة".

قبّلتها، و احتضنتها، و أجلستها بهدوء، و أنا أخبرها كالمعّلمة التي تنبه تلاميذها: "انتبهي يا جميلتي فأنا أريد طفل جميل".

قالت هي، و زوجها في ذات اللحظة: "بل طفلة، و سنسميها صفاء".

تملّكني التأثّر فبكيت. أخذت بسمة، و أمّي يهدهداني حتّى هديت. و أخبرتهم بأنّي سأحتفل بهم. أخذتهم إلى مطعم يقدّم الأسماك على البحر، فنحن نعشقه.

بعد أن انتهينا أرجعت رأسي للوراء، و أنا أغمض عيني، ثمّ فتحتهما بعد خمس دقائق، لأجد ذاك الشاب الذي قابلته في سيّارة الأجرة صباحاً يجلس أمامي بصحبة رجل، و فتاة و الجميع يضحك. لا أدري لِمَ شعرتُ بقليل من الغيرة، و الكثير من الضيق لرؤية الفتاة تمازحه، و هو يضحك بقوّة مطوّحاً رأسه، فألتقت أعيننا، فأشحت بوجهة بسرعة، و

لكني شعرت بنظراته تخترقني. و دونما رغبة منّي أخبرتُ أمّي، و أختي، و زوجها أنّ علينا الانتقال إلى محلّ للحلويات لنحضر كعكة لنحتفل في منزلنا. فرحّبوا جميعاً، و تركنا المكان، و لكن عند الباب وجدتُهُ يصطحب الشاب، و الفتاة التي كانت تُمسك بيدَي رفيقه، و تمازحه قائلة: "آدم متى ستتزوّج حتّى تصحبنا زوجتك في تلك العزائم المحدودة؟".

ضحك بخفوت، و هو ينظر إليّ مجيباً: "عساه قريبٌ يا سلمى".

شعرتُ بارتعاشة في قلبي، فأسرعتُ بالرحيل مع أهلي قبل أن يعرف أيّ شيء عنّي.

ما أن ترجّلت أنا، و أهلي من السيّارة أمام محلّ الحلويات حتّى وجدته برفيقيه أمامي، كأنّما المصادفات تطاردني به، لا أعرف لِمَ يرتعش قلبي لمرآه.

اشترينا الكعكة، و رحلنا. لا أدري كيف مرّت الأحداث على بعدها، كلّ ما أتذكّره هو طيفه الذي طاردني طوال الليل.

في الصباح رحلتُ دون فطور لتأخّري في النوم لأجده أمامي يمدّ إليَّ يده بعقدي الذي سقط منّي البارحة بالمحلّ،

و الذي لم انتبه لفقده حتّى. شكرتُهُ، و أنا آخذه منه بأدب، فابتسم في وجهي، و قال: "آدم المصري مهندس بحري، أجري بعد الأبحاث في مكتبة الأسكندرية".

ضحكتُ بقوّة، فأردف: "لذلك نلتقي في الطريق إلى هناك".

ها هو ذا يتذكّرني، و يتذكّر كلّ شيء يجمعنا. ابتسمتُ بعذوبة، و قلتُ له: "صفاء إبراهيم حاصلة على الدكتوراة في علم النفس جامعة الأسكندرية حيث أدرس فيها".

ثمّ انطلقنا إلى حيث وجهتنا، و نحن نتحدّث، و نتناقش في كافّة المجالات كأنّنا رُبّينا معاً. كان للكلام معه نكهة خاصّة، لا أكاد أشعرُ بمرور الوقت، فصوته دافئ هادئ رزين يُشعرك بالألفة و الأمان.

كانت الأحاديث تدور بيننا بسلاسة عجيبة، فأحُدنا يكمل للآخر ما يقول كأنّه هو. مع الأسف وصلنا سريعاً، و لكنّنا اتّفقنا على إكمال مناقشاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي، و لكن للمصادفة رأي آخر، فقد جمعتنا في طريق عودتنا لنكمل ما انقطع من حديث. ظللنا نتحدّث، و نضحك حتّى

جاءت محطّته، فنزل باسماً، و هو يقول: "سنتحدّث ليلاً في تلك المعضلة".

ضحكتُ، و أخذتُ أشيّعه ببصري حتّى غاب.

عدتُ إلى المنزل منشرحةَ الصدر، قبّلتُ رأسَ أمّي، و أكلنا، و تسامرنا حتّى جاء الليل، فركضتُ أفتح حاسوبي، و أنتظر حديثاً باسماً معه بلهفة لم أعدها قطّ، حتّى أن العجب تملّكني من نفسي.

4

توالت خمسةُ أيّام، و نحن على نفس النهج نذهب سويّاً، و نعود سويّاً. نتحدّث في طريقنا للجامعة صباحاً، و نكمل حديثنا ليلاً. و إن كانت أحاديثنا عامّة، إلاّ أنّ لها مذاقاً خاصاً، و موعداً محدّداً لا نخلفه، حتّى فاجأني بانتهاء إجازته، و غيابه لفترة طويلة لا يعلمها إلاّ الله. فأخذتني الصدمة للحظات غير قصيرة.

تمالكتُ نفسي، و سألتُهُ عن سبب الغياب، فأخبرني بأنّه ذاهب في بعثة دراسيّة. هنأته متمنّيةً له التوفيق، و استودعتُهُ الله، و خلدتُ إلى النوم.

لا أدري كيف نمتُ، و لكنّه نوم بلا أحلام، نوم رتيب ملول. عادت حياتي إلى طبيعتها، و إن كنت أشعر بخواء غريب، و شعور بالوحشة ينهشني. و لكنّي لا أظهر ما في داخلي، و ظللتُ صلبةً أمارس نشاطاتي بكلّ هدوء.

بعد عشرة أيّام وجدته يراسلني على موقع التواصل الاجتماعي، لقد استقرّ به المقام، و حُدِّدَتْ له دراسة بمدّة ستّة أشهر قابلة للتجديد.

اتّفقنا على موعد محدّد لنناقش أمورنا، و مشاكلنا. كانت تمرّ علينا الأيّام لتزيدنا قرباً، حتّى اضطرته الظروف الدراسيّة ليغيب عن موعدنا لأشهر دون سابق إنذار، و أخذتنا سفينة الحياة في رحلتها، حتّى عاد فجأة.

في أحدى ليالي الشتاء الدافئة جلستُ أمام حاسوبي، و بين يدي كوب من النسكافيه الممزوج باللبن. وجدته يحادثني، شعرت بالارتباك يهزّ قلبي وعقلي، حتّى أنّي لم أستطع التركيز في الحوار الذي كنت أديره بين أعضاء هيئة التدريس بكلّيّتي. حاولتُ أن أتمالك نفسي فلم أستطع، سألته عن غيابه. فلم يجب بل سألني فجأة : "هل تقبلين الزواج مني؟".

وجدتُ قلبي يخفقُ بقوّة كأنّما أراد تركي ليذهب إليه. هل ما يقوله صحيح؟، هل يريدني له زوجة؟، هل يحبّني؟، أم وجدني مناسبة له فقط؟. أخذت الأسئلة تعصف بكياني فسألته: "لِمَ تريد الزواج مني؟".

كان سؤالاً صادماً له، و لكنّه أجاب بلهفة: "لأنّي أحبّك، بل بالأحرى لأنّي أعشق الأرض تحت قدميكِ. و الآن هَلاّ أجبتني".

شعرتُ بالفرح، و الحبُّ يكاد ينقلني إليه في لحظة. ما هذه السعادة التي تغرقني في بحورها !. يا الله هل آن الأوان أن أستقرّ على شاطئ قلبه؟، هل حان الوقت ليفتح قلبي مصراعيه للحبّ، و السعادة أخيراً؟، ما هذا الحبّ الجارف الذي يأخذني إليه؟، وَ لِمَ هو؟. أحبّه أجل أحبّه كما لم أحببْ من قبل. هل هذا هو الحبّ؟. إنّه بطعم الحلوى، و مذاق الشيكولاتة، و نكهة القهوة، و عطر الورد، و برقّة الندى، و دفء شمس الصباح، و همسات النسيم.

قاطعني متلهّفاً لردّي، فأجبته، و الخجل يقطر من كلماتي: "أجل أقبل".

5

يا الله ما أروعَ هذا الحبّ!

تُرى هل هذا هو الحبّ؟

لو هو الحبّ فأنا أسْعَدُ أهلِ الأرض، بل أنا من أهل الجنّة.

أخذتُ أدور في غرفتي فرحةً، كفرخ صغير يطير لأوّل مرّة. أخذت أتمتم باسمه "آدم" يا له من اسم حفر في قلبي ليسقي خلاياي بدمه عشقاً. لقد تغيّرتُ على يديه، لقد ذبتُ عشقاً فيه لأصبح منه. كنت أشعر بفرحه، و حبّه، و عشقه لي، كنت أراه أمامي، مثلي يضحك فرحاً. يرتّب كلّ شيء، وَ يُعِدّ العدّة لزواجنا. كنت أشعر بنبض قلبه في صدري، فقد أصبحنا واحداً. يا الله أدم علينا فضلك، و تمّم لنا فرحنا يا كريم.

أخذنا نتحّدث، و نرتّب خطواتنا، غداً سيعود للإسكندرية، يومين لترتيب الأوضاع، ثمّ يُحادث والده، ثم يخبرني لأرّتب مع أمّي، و زوج أختي ليخطبني. كنت أنتظره بلهفة، و شوق. لا أدري كيف أمكنه أن يسرقني من ذاتي؟،

كيف أمكنه أن يمتلك قلبي الموصَد منذ سنين؟، قلبي الذي كان كالفرس الجموح لا يقدر عليه أحد، أصبح في غمضة عين سيّده. حتّى أنّي كدتُ أخشي على قلبي من حبّي له.

مرت الثواني بطيئة كسلحفاة عجوز مكسورة القدم. دائما يمرّ الوقت على المنتظِر بثقل تيراصور صخري ملول قادم من عصور سحيقة على أرض غير الأرض. لا أدري كيف احتملتُ هذا الوقت و ثقله؟، ولكنه مرّ، و جاء آدم ليخبرني بتلك المصيبة.

6

تملّكت الربكة من آدم، و هو يحادثني. و الرعب يملأ قلبه، فاهتزّ صوته، و هو يقول: "صفاء حبيبتي إنّنا في مشكلة لا أعرف ماذا أفعل؟".

أخذ الفزع يتفشّى في قلبي، و أنا أحاول أنْ أتماسك أمام الأسئله: "ماذا هناك؟".

قال لي: "أخشى أن تسيئي الظنّ بي".

كاد الرعب يفتك بي، و لكنّي تظاهرتُ بالقوّة، و قلتُ بهدوء: "لا تخشَ شيئاً ألا تعرفني؟".

قال لي بتوتّر: "لقد حادثتُ أمّي و قد قبلت، و لكن أبي رفض بدون أسباب، و أقام الدنيا و لم يقعدها على رؤوس الجميع".

صُدِمْتُ بقوّة، و أخذتني رجفة قويّة. يا الله هل تحطمت أحلامي، و آمالي بقوّة. لم أهنأ بحلمي لأيّام. أنا من انتظرتها طول العمر. يا الله هل هذه نهاية أمنياتي؟! أن أموت بتلك القسوة. هل حانَ وقت سفك دمي، و تمزيق قلبي؟. يا الله ساعدني، ماذا أفعل؟، ماذا أقول؟، بماذا أجيبه؟.

كان الرعب يتملّكه، كان يخشى سوء ظنّي به، كان يخشى فراقي، كان يخاف من ردّة فعلي. تماسكت، و سألته بصوت خفيض متألّم: "هل نفترق الآن؟".

صرخ في وجهي، و قال: "إنّي لم أخبرك لتتركيني، بل لأنّي أحتاج دعمك، أحتاجك بجانبي في تلك الحرب، لأنّي أريد أن أشعر بحبّك ليقوّيني، لا لتفارقيني، و ترحلي".

7

جلس آدم يستعيد أحداث تلك الأيّام الفائتة، منذ قبلتُ الزواج به، و حتّى اللحظة. أخذ يتذكّر كيف قضى ليلته ساهراً يغنّي، و هو يرتّب أغراضه للعودة إلى الأسكندرية في أقرب وقت.

كيف نسي معنى النوم؟، كم تمنّى أن يغمض عينه، و يفتحها ليجدني عروسه، سيّدة بيته، و ملكة فؤاده. قضى ليلته يحلم ببيتنا، و أولادنا، و حياتنا معاً، ضحكاتنا عندما يمازحني، كلّ شيء عاش فيه بأحلامه بكيانه، بروحه، بقلبه.

عاد إلى الاسكندرية، و هو يكبح شوقه للقائي. كان يريد أن يراني و هو خاطبي لا شيء آخر. استقبله أمّه، و أبوه، و أخوه، و زوجة أخيه بفرحة غامرة، و قضى ليلته بين تهاني الأقارب و الأصدقاء. بعد انصراف الجميع جلس بجوار والدته، و جلست قبالته زوجة أخيه سلمى، و التي مازحته كالعادة بقولها: "ألن تتزوج يا آدم، و تأتي إلينا بمن تشاركنا فرحتنا بك؟".

ابتسم آدم و حمرة الخجل تخالط فرحته، و قد استبشر خيراً بسؤال سلمى، و أخبرهما بنيّته بالزواج بي، فرحت به سلمى كثيراً، و باركت له والدته، و إن كانت قلقة بشكل ملحوظ.

حاول آدم أن يعرف ما بها، وَ لِمَ القلق؟، و لكنّها آثرت الصمت، ممّا أثار توتّره، فأرجأ مخاطبته لأبيه لليوم التالي.

في صبيحة إليوم التالي، ذهب إلى والده في محل عمله بمتجر بيع الأجهزة الكهربية، و بعد أن أنهى والده ما بيده، أخبره برغبته بالزواج بي. هاج والده و ماج، و أزبد، و أقام الدنيا فوق رأسه، و رفض بشدّة دون إبداء أسباب، ثمّ طرده من المتجر. في طريق عودته إلى المنزل اتّصل بي ليخبرني بما حدث.

عاد آدم إلى منزله متأخّراً، فقد أخذ يسير على غير هدى حتّى حادثني، و اتّفقنا على أن نعمل ما نستطيع لنقنع والده. استقبله والده بغضب، و بدأ في تقريعه، و إهانته. لم يحتمل آدم إهانة والده له و إصراره على الرفض، فواجهه بحبّه لي، و أنّه كما تزوّج أمّه و قد تحدّى الجميع ليتزوّجها، فكيف يمنعه حقّه في اختيار شريكة حياته؟.

كانت هذه أوّل مرّة يواجهه فيها، فما كان من أبيه إلاّ أن قام بصفعه بشدّة أمام الجميع. صرخت أمّه، و أخذت تبكي. ترك آدم البيت على غير هدى. ركضت سلمى إلى زوجها عمر، و طلبت منه أن يلحق بأخيه، أمّا والدته فقد أخذت ترجو أباه ليقبل، فقام بسبّها وإهانتها.

لحق عمر بأخيه آدم، و كان عمر يعمل مدرّساً، و هو ذو صدر متّسع، و لكنّه كان انهزامياً. أخبره بأنّ سبب رفض أبيه لزواجه بي لأنّه قد خطب له ابنة شريكه أثناء سفره، و هو لا يقبل بكسر كلمته، كما أنّه يريد توحيد رأس المال بذلك الزواج.

جنّ جنون آدم، و قرّر عدم العودة إلى المنزل، و ذهب إلى شقته في سان ستفانو. و لكن كان في انتظاره مفاجأة قاسية جداً.

8

ما أن اقترب من باب العقار الذي تقع فيه شقّته منعه حارس العقار، و أخبره أنّ والده أمرهم بمنعه، على الرغم من أنّ الشقّة باسم آدم. لو يستوعب آدم ما يحدث، و أصرّ على الصعود إلى شقّته، و قبل أن يتمكّن أقبلت سيارة الشرطة التي تقوم بجولتها اليومية، فترجّل الضابط منها، و كان صديقا لآدم. استمع بهدوء لما جرى بين آدم و الحارس، فقال لآدم: "يمكنني أن أمكّنك من شقّتك، لأنّها باسمك، و لكن هذا يزيد مشكلتك مع والدك تعقيداً. نصيحتي عُدْ إلى منزلكم، و حاول أن تحلّ مشاكلك مع والدك".

وجد آدم نفسه مجبراً على العودة إلى منزله. كانت الساعة تعلن تمام الثانية صباحاً عندما دخل آدم إلى منزل عائلته، وجد والدته تنتظره، و هي تبكي. احتضنها، و قبّل رأسها، و طلب منها أن تخلد إلى النوم.

كانت ليلته مُسهده، رفيقه فيها الحزن. يعزف فيها الألم على أوتار قلبه، و يرقص العذاب على أشلاء روحه الممزّقة. كان يعدُّ الثواني لشروق الشمس حتّى يحدّثني، و يبثّني أوجاعه.

أقبلت الشمس متكاسلة، كدبٍّ كسلان لا يريد أن يستيقظ. سقط شعاع خجول من النافذة على وجهه، فركض إلى خارج المنزل و صار يسير على غير هدى، فأخذته قدماه إلى باب منزلي، و انتظرني ثلاث ساعات حتّى موعد ذهابي إلى الجامعة. فوجئت به يتحرّق شوقاً للقائي، شاخص ببصره، لا تطرف عيناه المرهقة من عدم النوم، معلّق بصره بباب منزلي. قطعت تلك الخطوات التي تفصلني عنه في قفزة، و سألته بفزع:

- "ماذا بك يا آدم؟، أخبرني بالله عليك. ماذا حدث؟"

قصّ عليَّ كلّ ما مرّ به، بينما نحن في طريقنا إلى الجامعة، و مع كلّ حرف يحكيه تتّسع عيناي ذهولاً، و فزعاً. يا اللهي ماذا يحدث معه؟، كيف أمكنه تحمّل كلّ ذلك؟، ما هذه القسوة التي تجسّدت في قلب والده؟.

حاولت أن أخفّف عنه ما مرّ به، و أفكر معه ماذا نفعل؟. و أثناء حديثنا اتّصل به صديق والده، و أخبره بأن يعود إلى المنزل حيث ينتظره مع والده و عمّه.

تركني على عجل، و وعدني بالاتّصال ليطلعني على المستجدّ من أحداث.

كان والده قد اتّصل بأخيه الأكبر، و رفيق عمره يشكو لهما آدم، و كيف أنّه رفع صوته عليه، و تحدّاه. لذلك أقبلا سريعاً، و الغضب المخلوط بالدهشة يتملّكهما.

ما أن دخل آدم عليهم، حتّى هبّ عمّه معنّفا إيّاه على تجاوزه و تجرّؤه على أبيه. نكّس آدم رأسه معتذراً، و طلب أن يقصّ عليهما ما حدث. و كأنّما أمسك آدم بعصا سحري، و أبدل كلّ شيء. بمجرّد أن أنهى آدم حديثه، حتّى وقف عمّه غاضباً، و أخذ يعنّف والد آدم على تعنته، و إرغام آدم على الزواج من ابنه شريكه.

أيّد صديق والده رأي عمّه، فما كان منه إلاّ أن صرخ فيهم قائلاً بغضب محموم، و غيظ مكتوم: "إنّه ولدي أنا، و ليس من حقّكم أو أيّ شخص آخر أن يتدخّل بينا، و أنا هنا من يقرّر ماذا يفعل، دون غيري؟".

اعتبر عمّه و صديق والده أنّ هذا الكلام بمثابة طرد من المنزل. فما كان منها إلاّ أن تركا المنزل غاضبين، و آدم

يجري وراءهم محاولاً امتصاص غضبهما. لحق بهما آدم قبل أن يركبا سيارتهما و يرحلا، فأمسك بكتفه صديق أبيه، و قال له بحنان، و عطف جارف: "لن يقبل والدك بزواجك من محبوبتك مهما فعلت، فاصرف النظر عن زواجك منها".

شكره آدم لاهتمامه، و نصيحته، و أخبره أنّه لا يمكنه الزواج بغيري مهما حدث، و لن يتنازل عن الزواج بي، حتّى لو قتلوه. ثمّ ودّعه، و ذهب إلى البحر، و جلس أمامه يفكّر، و قد أغلق هاتفه الجوّال.

تنازع البحر مع التفكير على سرقة ساعات طِوال من عمر آدم. حتّى قارب الفجر على البزوغ دون أن يتوصّل إلى حلّ. كان يبغي أن يتزوّجني بعزّة، و كرامة، كأميرة تخطب من بيت الكرام لتزفّ إلى زوجها برأس مرفوعة بين الناس. كان يتمنّى أن يكون فارسي الذي يخطفني من جميع الذين رغبوا في الزواج بي، و يفوز بي لآخر العمر. و لكنّ والده أبى أن يلبّي رغبته، فماذا يفعل؟، هل يرضخ لرغبته ويتركني؟، أم يصرّ عليَّ، و يتزوّجني حتّى و إن رفض؟. ارتفع صوت أذان الفجر، فنفض عن رأسه كلّ ما يشغله، و انطلق لأقرب مسجد ليصلّي و يفوّض الأمر إلى الله.

9

قبيل الساعة العاشرة صباحاً أدار آدم مفتاحه بباب المنزل و ذهب رأساً ليعدّ حقائبه، سيقطع إجازته، و يعود إلى عمله كمهندس بحريّ. حاولتْ أمّه، و سلمى ثنيه عن ذلك، لكنّه أبى بشدّة، ثمّ اتّصل بي ليخبرني بقراره، و الذي أبدله بعد مناقشتنا بعشر دقائق.

تملّك العجبُ من الجميع لتبدّل رأيه السريع، و حاولتْ سلمى أن تعرف السبب، فأخبرها بأنّي السبب، فرجته أن يعرّفها عليَّ، و قد تمّ ذلك، و أصبحنا صديقتين من فورنا.

لم تمرّ الليلة على خير، فقد اقتحم والده غرفته فور عودته، و قام بضربه، و سبّه لأنّه تسبّب في مشكلة بينه و بين أخيه و صديقه. كان آدم صموتاً يتلقّى كلّ شيء دون أن يهتزّ له جفن، كان راسخاً كالجبل. أقبلت أمّه، و أخوه على صراخ والده، و أقنعاه بترك آدم بصعوبة بالغة. كان شعور المهانة، و الذلّ يحرق جوفه ممزّقاً روحه، و مشعلاً ناراً في قلبه. فما كان منه إلاّ أن جمع أغراضه ليرحل، و لكن قبل سفره أخذ يبعث لي رسائل بأنّه لا يحبّني، و أنّه كاذب، و أنّه خدعني، و اتّخذني لعبةً و تسليةً يسري بها على نفسه.

كانت رسائله تحمل قدراً قاسياً من العذاب. لم أصدّقه، و ردّدت عليه باستفزاز ليتّصل بي، و قد فعل، و لكن و يا لهول الصاعقة، إنّه يبكي كطفل يتيم ضائع بصحراء يبحث أنّ الأمان في أيّ شخص فلا يجده. قتلني بكاؤه قتلاً، و كأنّ كلّ دمعة تسقط من عينيه تحرقني، و كأنّ كلّ شهقة تخرج من صدره تمزّق قلبي. كان يكذب، و يكرّر بين دموعه ليخبرني بأنّه لا يحبني، و هو العاشق المتيّم الذي يغار من نسمة تلامس خدّي.

لم أصدقه، و لن أفعل، و أستحلفته بربّ الكعبة، فأبى ، و أخذ يبكي بكاءَ أمٍّ ثكلى على وليدها الذي مات بين ذراعيها. لم أستطع أن أحتمل بكاءه، لقد حوّلني لكومة من الأطلال الخربة، و لكنّي لم أستسلم لذلك، فوجدتُني أطالبه بالصبر، و أعده أن أظلّ له لآخر العمر، و أرجوه أن يأكل شيئاً من طعام، و هو الزاهد فيه منذ أيّام، فرفض، و أغلق هاتفه.

لم أحتمل تركه هكذا، فطلبتُ سلمى، و رجوتُها أن تطلب من عمر إنقاذه، و أستحلفتها أن تطمئنني. فأسرعت سلمى نحو عمر الذي ركض، و أمّه وراءه إلى غرفة آدم، و حاول

فتح الباب فوجده مغلقاً، فطرقه بشدّة ليفتحه آدم دون جدوى، فكسر الباب، و دخلوا عليه ليجدوه متكوّراً حول نفسه كَهِرّة صغيرة ترجف في ليلة شتويّة عاصفة.

أمر عمر سلمى أن تأخذ والدته إلى خارج الغرفة، أمّا هو فاحتضن أخاه مهدهداً. أسرعت سلمي تنفّذ أمره، ثمّ اتّصلت بي لتطمئني. بينما ظلّ آدم بحضن أخاه لساعتين، و أخوه يهدهده، و يقرأ القرآن بأذنه ليهدأ.

أقبل الفجر سريعاً فحمل آدم حقيبته ليترك المنزل، فاستوقفته أمّه فأخبرها بأنّه لن يتزوّجني، و لكن لا يحدّثه أحد في أمر زواجه فهو لن يتزوّج إطلاقاً.

أغلق آدم كلّ وسائل الاتصال به، و لكنّي علمت كلّ شيء من سلمى. لم تحتمل والدته عذاب ابنها، فأتصلت بأخوتها ليحدّثوا زوجها، و يقنعوه. فلبّوا طلبها و ذهبوا إليه، فطردهم شرّ طردة من منزله. إنّها القشّة التي كسرت ظهر الحمار، فأخذت تصرخ بزوجها قائلةً: "لن أتركك تدمّر ابني، سأخطبها له بمعية أخوتي".

ما أن انتهت من جملتها حتّى انهال عليها ضرباً حتّى سال الدم من رأسها، و حلف عليها بالطلاق إنْ تمَّ زواجنا دون رضاه ستصبح طالقاً منه. و لتكتمل المأساة كانت هذه الطلقة الثالثة، بعدها تُطرد إلى بيت أحد إخوتها. علمت بما حدث قبل آدم، و الذي جنّ جنونه، كيف يبتزّه بأمّه؟، يا للقسوة هل هانت عليه العشرة لتلك الدرجة؟.

10

كادت الصدمة تطير بصوابي، فما بالنا بآدم نفسه. مرّت الأيّام رتيبة أنازع في كلّ ثانية منها، و آدم مصرٌّ على الغياب حتّى ذاك حادث السيارة التي تسبّبت في بعض الكدمات، و الرضوض، و أخبرت آدم فاتّصل بي من عرض البحر ليطمئنّ عليَّ. ظللنا نتحدّث لساعة كاملة، و لكنّه أصرّ على الفراق لأّنه لا يشعر بأنه رجل أمامي، فقد خذلني، و لم يستطع أن يفي بوعده، حاولت أن أثنيه دون جدوى. أخبرته أنّه زينة الرجال، و أني لا ألومه، و أنّي صابرة، فرفض لكي أتزوّج بغيره، و أعيش حياتي، لا أنتظره و هو عاجز عن الزواج بي، و أمرني بقطع علاقتي بسلمى حتّى لا أعرف أخباره. رجوته أن يتركها لي فهي صديقتي، و أختي فأبى، فامتثلتُ لأمره. فودّعت سلمى بدموعي التي اختلطت بدموعها، و التي وعدتني بأن تطلق على أبنتها اسمي.

يا الله هل هذه نهاية قصّتي؟، يا الله ما هذا العذاب الذي يجتاحني؟، إنّي أموت ببطء، لا أمل لي في تلك الحياة، فقد أخذوا منّي روحي بقسوة، و سفكوا دمائي، و مزّقوا قلبي، و أقاموا حفل سمر على أشلائي.

مرّت الأيّام عليَّ كمرورها على تمثال حجريّ لا يضيره شروق الشمس، و لا يعنيه ظهور القمر. فلا معنى لكلمة ضوء عنده، فهو لا يعرف إلاّ الظلام. صرت كمنحوتة شمعيّة باسمة لا حياة فيها، يحسبها الناظر فَرِحَةً و هي لا تعرف معنى الفرح.

مرّ عليَّ شهر كامل كنت خلاله أتصرّف بآلية تامّة. كان آدم يحبس نفسه في العمل، و لا يعود إلى البيت حتّى يجبر نفسه على الغياب، و لكن بعد مرور الشهر لم يحتمل غيابي عنه، فعاد ليطمئن عليَّ، و عرفت منه أنّه طوال الشهر لا ينفكّ يحاول إقناع والده دون جدوى.

عُدْتُ إلى الحياة بعودة آدم، كبذرة جامدة في تربة جافة ارتوت بالماء فأزهرت. استمرّت محاولاته لإقناع والده بشتّى الطرق من اجتماع بالعائلة و الاصدقاء، إلى عدم العودة إلى المنزل، إلى غلق هاتفه لأيام، إلى مناقشات طويلة، لم يترك أيَّ طريقة تخطر على باله إلاّ وجرّبها.

انقسمت عائلته إلى ثلاث جهات: والده الرافض لزواجنا، و سلمى زوجة أخيه التي تباركه، و تتمنّى تزويجنا عاجلاً غير آجل، و عمر المحتار فقلبه مع أخيه، و عقله

يبعده عن المواجهة، في حين كانت أمّه تبكي عليه، و على حاله، ليس بيدها شيء.

كنت دائماً بجواره لأخفّف عنه، و أشدّ من أزره، الابتسامة لا تفارق وجهي، أمازحه طوال الوقت، أطمئنه بأنّ فرج الله قريب. كان ضميره يعذّبه، و يجلده لأجلي، فيشعره بأنّه مذنب في حقّي، و تحت وطأته يغيب عنّي، و لكنه لا يحتمل بُعْدي عنه، فيسرع إليَّ. كنت أستقبله بعتاب خفيف، ما يلبس أن ينتهي بكلمة اعتذار منه، لنعود كما كنّا قبل الغياب.

ظللنا على تلك الحالة سافر دون سابق إنذار لمدّة شهر.

كنت أتجرّع مرارة غيابه كلّ ثانية فتحرق قلبي، و تنهش روحي لأعلق بين عالمين. و فجأة اتّصل بي أخوه عمر، و استهلّ كلماته معتذراً على اتّصاله بي، ثم خيرني قائلاً: "دكتورة صفاء، أن الوضع في بيتنا أصبح على وشك الانفجار، و لذلك نحن بحاجة إليك لتنهي تلك الحالة، فإمّا تقبلين بالزواج من آدم و تطلّق أمّي، و في هذه الحالة تحدّثي إلى آدم، و إن وافق سأقف إلى جواركما قلباً و قالباً، و لكن ما ذنب والدتي لتطلّق و تطرد من بيتها و هي في هذا

السن؟. و أنا لا أخالك تقبلين بذلك. و إمّا تفترقا، و في هذه الحالة يمكنك أن تعيشي حياتك، و تتزوّجي بآخر، و تسعدي بحياتك، و آدم فَلْيُعِنْهُ الله على فراقك، فهو يتعذّب لذلك، و لن يتزوّج بابنة شريكه أو غيرها، فهو يعشقك، و لن يقبل بغيرك. و الآن الأمر يعود لك، ماذا اخترتِ؟".

صمتُّ للحظات أتمالك فيها نفسي، ثمّ أجبته بهدوء و رزانة: "ألا تعرف آدم أنّه يحبّكم بشدّة، و خاصّة والدته، و لن يقبل بإيذائها بأيّ شكل، و كذلك أنا فلا يمكنني أن أقبل بأن يمسَّها بسوء، أمّا بخصوص وقوفك بجانبنا، فأنا لا أراك وقفت بجوار آدم في محاولاته مع والدك، فكيف بالله عليك ستقف معه الآن؟".

ارتبك أخوه، و أجابني: "كلاّ لقد كنت دائماً بجانب آدم، و لكن أبي رجل عصبيّ قاسٍ لا يعطي أحداً فرصةً للحديث معه".

شكرته، و أنهيت الحديث بودّ، ثم جلستُ لثلاثة أيّام أبكي بشكل شبه متواصل. كنت أرى يعيني صورته و هو معذَّب، و صوته الباكي يملأ أذني. إنّه جحيم أبديّ ألقاني فيه عمر، صدمني بالحقيقة المجرّدة، فأسباب الأرض ترغمنا

على الفراق، و ليس لي إلاّ مسبب الأسباب ربّ العالمين لألجأ إليه.

مرّ شهر على تلك المحادثة، عاد بعدها آدم من سفره، و اعتذر لي على غيابه المفاجئ. وقع عقلي في حيرة هل أخبره بمحادثة أخيه أم لا. إنْ أخبرته سيتعارك مع أخيه، و إنْ سكتُّ، و عرف من غيري لغضب منّي لأنّي أخفيت عنه أمر تلك المحادثة.

أخذت أفكّر مطوّلاً، ثمّ اتّخذتُ القرار الذي وجدتُه صائباً سأخفي عنه الأمر، فعائلته لا تحتمل انشقاقاً آخر. سأتحمّل غضبه و ثورته عليَّ برضى و لن أجعله يتعارك مع أخيه الأكبر.

تمّ نقل آدم إلى موقع آخر يتطلّب غيابه لعدّة أيّام، كان الوضع بيننا على أحسن ما يكون. و فجأة اتّصل بي يطلعني أنّه في المنزل لأنّ والدته بحاجة إلى إجراء عمليّة في عينيها حيث أصيبت بإعتام عدسة العين من كثرة بكائها. و أنّ والده قد أقسم أنّه لن يقبل بي زوجة لابنه حتّى مماته، و لذلك فهو يطلب منّي مسامحته لما تسبّبه لي من أذى، و

يرجوني أن ألتفت إلى مستقبلي، و أنساه، و أتزوّج من يليق بي.

كانت صدمة رهيبة لي، فقد كان جادّاً هذه المرّة بشكل لم أعهده من قبل، و لا يتقبّل منّي أيَّ كلمة، فقد قرّر الفراق لأجلي أنا. قرّر السفر لإكمال دراسته بعد أن تجري والدته تلك العمليّة. كان وداعاً مُرّاً قاسياً مدمّراً، تقبّلته بهدوء لشعوري بمعاناته و عذابه، و أنّه يتمزّق بين الواجب و الحبّ. رحل عنّي آدم و لم يرحل منّي، يمكنه أن يغيب، أن يرحل، و لكنّه سيظلّ نبضَ القلب، و منى الروح، و أنفاسي.

11

كادت الصدمة أن تودي بحياتي لولا لجوئي إلى الله، فأكثرتُ من قيام الليل، و الدعاء بقلب ممتلئ بالثقة في الله. مرّت عليَّ الأيّام، و أنا على عهدي مع الله. أربعة أشهر كاملة، و أنا صابرة أحتسب، و كلّي ثقة بعودته لي زوجاً. و أثناء عودتي من الجامعة، و أنا أسبح، إذا به أمامي، و على شفته بسمة ثقة، و في عينيه شوق جارف. وجدت دموعي تنهمر على وجنتي، ركض إليَّ مُسرعاً، ثمّ جثا على ركبتيه حاملاً بيده اليمنى باقة من الزهور الحمراء، و اليسرى علبةً حمراء فيها خاتما خطبة، و قال لي: "أميرتي الفاتنة، هل تقبلين الزواج مني؟".

أخذتُ أهزُّ رأسي بالموافقة، و دموعي تختلط بلساني الذي يحمد الله على فضله.

..*.*.*

بعد عودته بأسبوع كنت أنا، و آدم في ثياب العرس نركب سيّارتنا لننتقل إلى مرسي مطروح حيث سنقضي أيّام زواجنا الاولى، و كان في وداعنا والده و والدته، و والدتي،

و أخوه، و زوجته، و أختي، و زوجها، و صفاء الصغيرة ذات الشهرين. أسندت رأسي على كتف آدم، أخذت أسترجع ما مرّ بنا، و كيف شرح الله صدر والده لزواجنا، و كيف بارك لنا زواجنا.

..*.*.*

مرّ على زواجنا شهران، كانت كالجنّة. الحبّ الذي جمعنا كان يكبر يوماً بعد يوم. كالعادة يمرّ آدم ليأخذني من الجامعة لنتنزّه قليلاً قبل العودة إلى المنزل. اليوم قادتنا أقدامنا إلى عمود السواري، الذي ما أن لمسناه حتّى عادت إلينا الذاكرة فأنا صوفيا الجحيم المدللة التي يعرفها الفانون بكينونة، و هذا هو خوسيه حبيبي الذي تركت كلّ شيء لأجله. تذكّرت تفاصيل كلّ ما مرّ بنا حتّى اللحظة.

نظر إليَّ خوسيه برقّة، و سألني :"صوفيا، هل تذكّرتِ كلّ شيء؟".

هززتُ رأسي: أي بنعم، فابتسم، و سألني: "و الآن هل تعرفين من أنا؟".

نظرتُ في عينيه بحبّ، و أجبتُهُ: "أجل أنت خوسيه حبيبي و زوجي. أنت نبع الجحيم".

ضحك بقوّة و قال لي: "يبدو أنّكِ عرفتِني، و لكن السؤال منذ متى عرفتني؟".

بادلتُهُ الابتسامة، و أجبتُهُ: "الآن فقط عندما نظرتُ في عينيك، و أنا أتذكّر كلّ شيء، لقد أجدتَ التنكّر".

أمسك بيدي، و قبّلها، و قال: "صوفيا أنا أحبّك، و طالما أحببتُكِ، عندما أصررتُ على الذهاب إلى أرض الفانيين خشيت عليكِ منهم، فتنكّرت، و لحقتُكِ". صمت برهة، ثمّ أردف: "و الآن صوفيا. هل نعود إلى أرض الجحيم؟، لن يكون هناك ضرر علينا، أم نظلّ هنا في مصر؟".

أجبته بحزم: "بل نبقى هنا، أعلم أنّنا ما أن نترك هذا المكان حتّى سننسى كلّ شيء عن ماضينا، و سنحيا: صفاء و آدم الفانيين المتزوّجين السعيدين، لقد أحببتُ ذلك حقّاً".

ابتسم لي قائلاً: "و ماذا عن السفر حول العالم صوفيا؟".

ضحكتُ، و أنا أجيبه: "ستكون الحياة رائعة مع آدم سواء سافرت صفاء أم لم تسافر"، ثم أطرقتُ خجلاً، و أنا أقول: "أحبّك آدم".

ضمّني بين ذراعيه، و قال: "أعشقك يا صفاء، يا مهجة القلب، و قرّة العين".

تركنا المكان في رحلة عودتنا إلى منزلنا، و أيدينا متشابكة، و أعيننا تتبادل كلام الحبّ الطاهر، و ذكرياتنا تتبخّر بسرعة، و ابتسامتنا تتّسع.

الخاتمة، ، ،

إنّ الملل القاتل يصنع المعجزات، أو ربّما كان محرّك الأحداث.

في حكايتنا تلك دفع الملل صوفيا الجحيم المدلّلة لترك أرض الجحيم، و قضاء إجازة في أرض الفانيين. و لكنّها لم تكن تعرف أنّها على موعد مع المغامرة الكبرى التي تنتهي بالبقاء الأبدي في أرض الفانيين.

صفاء حسين العجماوي

تستهل " صفاء حسين العجماوي " روايتها هذه بإهداء ذي دلالة ومغزى (إلى ذلك المجهول الذي آثر المكوث في الظل ليلهمني حروفي .. إليكَ أنتَ) ، فرغم عبق الخصوصية الذي يضوع منه، إلا أن النظرة المتأملة ترى فيه عمومية تَخْتَزِل الجميع في كلمة واحدة (إنسان).

ولعلنا – هنا – نستجيب لتحريض الإهداء، و هو يحثنا على استدعاء عنوان كتاب " ألكسيس كاريل " (الإنسان .. ذلك المجهول) الذي حاول فيه الكشف – برؤية علمية – عن مناطق داجية لا تغادر هذا الكائن.

محمود قنديل